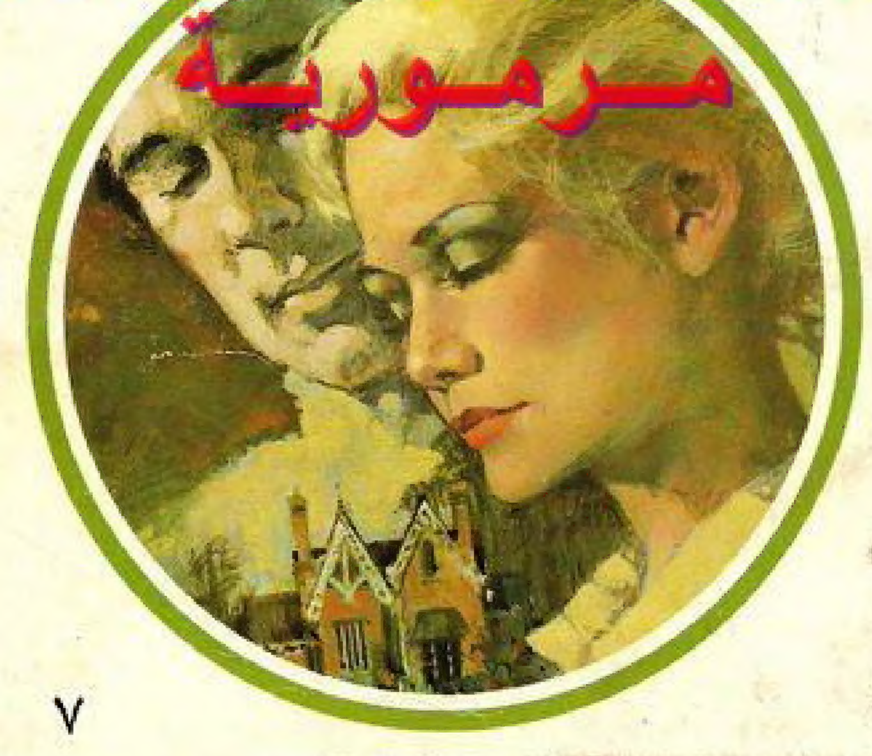
روايات عبير

فيوليت وينسبير

شهر عسل مرّ



روايات عبير

شهر عسل مر

الكبرياء قناع بامكانه ان يحجب الحب او يحوّله الى كراهية وصدّ ... ولعلّ اختلاف الطبائع والاطباع بين البشر يدفع احياناً ببعضهم الى التمسك بكبريائه حتى آخر لحظة ، ودومني الانكليزية التي تزوجت اليوناني بول لم تقبل يوماً واقعها ، وبرغم الحياة الفريدة التي اعطيت لها على طبق من ذهب ، بقيت وشائج قلبها متعلقة بشاطىء بلدها ... وبذلك الرسام الشاب الذي خطف لبّها بحديثه وطموحه ، وركض معها على الرمال الرطبة ... وتلتقيه في الجزيرة اليونانية بعد سنوات ... فهل تهرب معه كما يريدها ان تفعل ، أم تبقى وفيّة لذلك النمر اليوناني بول ستيفانوس ؟

لبنان	٦ ل.ل.	الكويت	٧٠٠ ف	اليمن	٨ ر	السودان	٧٠٠ م
سورية	٨ ل.س	الامارات	٩ د	تونس	١ د	فرنسا	١٠ ف
الأردن	٥٠٠ ف	البحرين	٩٠٠ ف	ليبيا	٧٠٠ د	بريطانيا	١ ب
العراق	٥٠٠ ف	قطر	٩ ر	المغرب	٨ د	اليونان	١٢٠ د

١ - الجمر من جليد

كان ثوب زفافها من الحرير اليوناني الجميل، وكان شعرها متوجاً باكليل فضي رقيق، تتدلى منه طرحة دانتيل مطرزة بقلوب صغيرة· وعندما ظهرت دومني متأبطة ذراع عريسها، لم يخطر لاحد أنها تزوجته خوفا وليس حبا·

ورحل العروسان بعد ساعة متجهين الى الساحل، واستقلا سيارة أجرة الى الفيلا الواقعة على الشاطىء الصغير، التي استأجرها بول ستيفانوس لقضاء أسبوع، قبل أن يطيرا الى أثينا· كان يتمنى دائما أن يشاهد الساحل الغربي· وأخبر عروسه دومني بذلك وها هي الفرصة قد حانت·

وكان خادم بول اليوناني، وزوجته ليتا، قد سبقا العروسين الى الفيلا، وأعدا كل شيء لاستقبالهما· كان يوما ساحرا دافئا من أيام الربيع لكن عند غروب الشمس هبت نسمة من البحر، وأشعل الخادم يانيس نار المدفأة في غرفة الجلوس·

وشعرت دومني بالدفء لأول مرة في ذلك اليوم عند دخولها غرفة الجلوس· وخلع بول معطفه، وتقدم نحو الطاولة، حيث كانت زجاجتان ذهبيتا الغطاء في انتظارهما ليشربا نخب العرس·

وقال بول بصوته العميق ذي اللكنة الأجنبية وبلهجة

يشع فيها المرح والرضا:
"رائع، لقد تذكر يا ينس طلبي".
وتكومت دومني بجانب المدفأة تدفىء يديها، وتهدلت خصلات شعرها العسلي فوق وجهها، فأخفت نظرة الفزع التي قفزت الى عينيها عندما رأت بول يعد المشروب الذي أحست أنه سيكون بمثابة السم.
وقال بول وهو يعاونها على النهوض:
"دعيني أساعدك في خلع معطفك".
وكانت أصابعه ماهرة في فك أزرار معطفها ونزعه من فوق كتفيها. ودفعت هي يديها خلال شعرها، بينما كان يتأملها بعينين لاهيتين. ثم قال:
"غالبية النساء يشغلهن عادة تمشيط الشعر واعادة الزينة بعد هذه الرحلة الطويلة في القطار. بدأت أظن أنك اما أن تكوني غير مغرورة بنفسك على الاطلاق. واما أنك الغرور بعينه في تظاهرك بعدم المبالاة بحقيقة جمالك".
ولم تعر كلامه أذنا صاغية، وواجهته في تماسك سرعان ما أخذ يتلاشى، وشعرت بالبرودة تسري في أعماقها، بينما كان عقلها يجري في كل اتجاه هربا من فكرة كونها بالفعل هنا ... في كورنوال ومتزوجة من هذا الرجل!
ولم تستطع أن تلوذ بالكتمان طويلا، فخرجت الكلمات منها عنوة. قالت:
"بول، هل ستمضي حقا في هذا ... هذا الزواج الذي أرغمتني عليه"؟
وبفتور، وبطء أخرج علبة سكائر وقدمها اليها، ورفضت بهزة من رأسها، وأشعل هو سيكارة قائلا:
"أعطيتك الخيار يا عزيزتي".
ونفث دخان سيكارته واستطرد قائلا:
"أنا لم أرغمك على الزواج بفوهة بندقية".

الخيار؟ ارتجفت دومني من الكلمة. هل يعتقد ذلك حقا؟ وامتلأت عيناها الزرقاوان بالخوف والحيرة وهي تتطلع الى وجهه. واستقرتا أخيرا على الندبة الغائرة فوق عينه اليمنى. الندبة كانت الشيء الوحيد الذي يضفي عليه صفة الانسانية.
وقالت:
"أنا، أنا لا أصدق أنك مصنوع من الحجر لكنك تتصرف كما لو كنت كذلك. كما لو كان لا يعنيك على الاطلاق أنك اعتديت على حياتي، وانتزعتني من كل ما أحب، فقط لأكون لعبتك. هل تعتقد أنني أستطيع أن أغفر لك ذلك، أو أن أحبك فعلا"؟
وتشاغل بول بتقليب فحم المدفأة بفرع شجرة، وارتسمت ابتسامة غامضة في عينيه وهو يقول:
"أنا مدرك تماما حقيقة نظرتك الي، لكنها تفاهة عاطفية أن أكون محبوبا. وليس عندي وقت لأبدده في التفاهات. لدي نواحي ضعف قليلة يا دومني، واحدة منها هي حب الاشياء النادرة. وأنت مخلوقة نادرة جدا، أنت جميلة، ولكن غامضة يمكنك أن تخفي أي شيء، باردا كان أم مشتعلا".
وسحب نفسا عميقا من سيكارته، وقال ببطء:
"أردتك، منذ أول لحظة تقابلنا فيها في فردان".
واستطاع أن يأسر نظراتها، وأن يرغمها على الانصات اليه. واستطرد قائلا:
"في ذلك اليوم الذي اكتشفت فيه تزوير ابن عمك، ذهبت الى فردان في حالة غضب شديد، وكنت مصمما على اخبار عمك بما فعله ابنه الشقي. وكنت هناك. كنت لا تزالين في المدرسة الداخلية آخر مرة كنت فيها في انكلترا قبل ذلك، ولكن في ذلك اليوم بالذات كنت قادمة لتوك من نزهة. كان فمك ورديا. وعيناك شديدتي الزرقة. ومنذ تلك اللحظة أصبح تورط ابن عمك سلاحا في يدي".
وتأملها ... ثم استأنف قائلا:

"انك تجفلين يا دومني. ولكنني كنت آمل ألا أستعمل هذا السلاح. كنت آمل أنك قد... في أي حال أصبح واضحا اخيراً أنك تنظرين الي فقط على أنني اليوناني الجاف الذي يعمل عنده ابن عمك كمساعد مدير في أحد مكاتب خطوط ستيفانوس للملاحة البحرية".

وعاد الى السكوت، وبينما اهتزت أعصاب دومني. وارتفع صوته من جديد يقول:

"أردتك... وبأي ثمن".

وارتعدت، كارهة صراحته القاسية، لكنها مدركة أيضا أنه لو تحدث عن حبه لها، لكانت احتقرته. وطافت بنظراتها حوله كما فعلت أول يوم قابلته في فردان، عندما حذرتها غريزتها أنه خطر يهددها بوجهه الوثني، وبعينيه الذهبيتين اللتين تشبهان عيني النمر، وبشعره الداكن القصير المجعد، الشبيه بصوف الغنم.

وتباعدت عنه اذ كان يشع قوة وخطورة، وقالت بصوت مضطرب كانت تحاول أن تحتفظ بسيطرتها عليه:

"لا أعتقد أنني يمكن أن أستمر في هذا الزواج يابول... أرغمتني على موقف قاس، غير متحضر، وأنت لا تحمل لي ذرة من المشاعر".

قال:

"كبرياؤك هو الذي أرغمك على اختياري، مفضلة ذلك على رؤية اسم اسرتك في محاكم الجنايات".

وسكت برهة، ثم قال:

"ولماذا أرثي لك، وأنا الذي يجب أن يعجب بك لانك واحدة من اللواتي يؤثرون العذاب على رؤية من يحببن في الوحل"؟

وألقى ببقايا سيكارته في النار، وتقدم منها. ومن جديد تباعدت عنه، لكنه أمسك بها وهمس:

"تعالي... أنا لست وحشاً".

وذعرت عندما لمحت بريق عينيه الذهبي من خلال أهدابه السوداء الكثيفة. وعاد يهمس:

"أستطيع أن أكون لطيفا خاصة مع شيء جميل مثلك، أنت جميلة للغاية، وكلك كبرياء، أنك جليد مشتعل".

وسأل ساخرا:

"يا ملاكي الصغير... هل توقفت عن الابتسام الى الابد؟ هل ستنظرين الي دائما بهاتين العينين العابثتين"؟

فقالت:

"وماذا توقعت؟ عينين مليئتين بالحنان"؟

وبدا عليها انها على وشك البكاء وقال:

"لا أسالك أن تحبيني يادومني، ولكن لا تكرهيني"..

"أنا أحتقرك".

خرجت الكلمات عنيفة من فمها وأحست بالنفور من قربه. من لمسة يديه. بل ومن النفور لادراكها أن وجهه كان أجمل وجه رأته، رغم الندبة التي تعلو عينه اليمنى. نعم كان وسيما، وقاسيا.

وانطلق يمسح جبينها، اذ دخل في تلك اللحظة يانيس بصينية الشاي، والتي وضعها فوق المنضدة. وجلست دومني تسكب الشاي. ولا شيء في وجهها له لون سوى عينيها وفمها.

وكان بول استأجر الفيلا مفروشة، وفي نظرة الى المكان تبينت أنه لا شك دفع ايجارا مرتفعا. نقوده كانت تخيفها، حولته الى رجل لا يعرف، أو لا يهتم، بأن هناك أشياء لا يستطيع أن يشتريها أبدا. مثل الحب والشرف اللذين يجبرها الزواج على منحهما اياه!

وقال بول لخادمه:

"انا مسرور لتذكرك مشروبي يا يانيس. سنشربه طبعا مع عشاء عرسنا".

ورفعت دومني بصرها، ورأت وجه الرجل اليوناني يفتر عن ابتسامة خفيفة. كان قليل الكلام، شديد الولاء لسيده. وبعدما أكد لسيدته الجديدة الشابة أن عشاء العرس سيكون جاهزا بعد ساعة، انسحب بهدوء من الغرفة.

وناولت دومني فنجانه. وارتشف رشفة، ثم قال ضاحكا:

"اني أتساءل اذا كنت سأعتاد الشاي الانكليزي".

سألت ببرود:

"ولماذا لم تطلب قهوة"؟

وجلس على ذراع المقعد قائلا:

"أعرف أنك تفضلين الشاي يا عزيزتي".

وقاومت نفسها حتى لا تتحرك بعيدا عنه. وأعاد الشاي الساخن بعض الحياة الى جسمها البارد، لكنها لم تشعر بالامتنان لبول اذ أوحت لنفسها بأن عليها أن تكره الاشياء التي يمنحها اياها، مثل الثوب الأبيض وطرحة الزفاف، التي أرسلت اليها في انكلترا بأمره من وطنه جزيرة أنديلوس.

وبدون ان تنظر اليه سألته:

"هل احرقت الشيكات المزورة كما وعدت"؟

"ليس بعد".

وعندما نظرت اليه بسرعة، ابتسم قائلا:

"ربما استقرت في رأسك الجميل فكرة الهرب مني، لذلك فالشيكات المزورة ستبقى، حتى الغد".

واحتقن وجهها ألما، عندما فهمت ما يقصد. وقالت:

"هل... هل تعد باحراقها غدا"؟

قال مطمئنا:

"ساحرقها في وجودك".

بعد دقائق صعدا الى الطابق العلوي ليرتديا ملابس العشاء - وكان جناحهما الابيض مزينا بالورود المختلفة، وكان ملحقا بكل غرفة نوم حمام خاص- وتاخرت دومني في أخذ حمامها،

حتى سمعت الباب المشترك يغلق، وتأكدت أن بول آستحم، وارتدى ثيابه، ونزل. وحينئذ لفت نفسها في منشفة كبيرة بيضاء، وخرجت من الحمام الى غرفة نومها. وعندما اقتربت من مائدة الزينة، وقع بصرها على علبة مجوهرات لم تكن موجودة عندما دخلت الحمام. وحدقت فيها كما لو كانت شيئا يمكن أن ينقض عليها ويفتك بها. لابد ان بول هو الذي أحضرها. وفكرت أن تنقلها الى غرفته بدون أن تفتحها. لكنها متأكدة أنه سيرغمها على أن ترتدي ما في العلبة.

وفتحت العلبة، ووجدت داخل بطانتها الحريرية مشبكا من اللؤلؤ على شكل قلب تحيط به قلوب ياقوت كدموع من دم متفجرة ومعه قرط مشابه له.

وحدقت دومني في المجوهرات التي سحرتها بجمالها، ثم شعرت كأنها تسخر منها. نزعت المشبك، ورمته وهزتها دموع الغضب، واستلقت فوق سريرها تبكي بدموع ساخنة، كما لم يحدث من قبل في حياتها.

كانت سيدة نفسها. ابنة الأخ المحبوبة لمارتن دان الذي عاملها دائما كابنة منذ جاءت اليه طفلة، بعدما غرق والداها. ثم... وسط فيضان دموعها... جلست، ورفعت خصلات شعرها عن وجنتيها المبللتين وحدقت بقلب واجف في الباب المشترك. قال بول انه سيتخلص من هذه الشيكات في الغد. اذن فهي موجودة في الفيلا. في غرفته. وقفزت من سريرها، ونسيت دموعها وهي تقترب من الباب. اذا عثرت على الشيكات فستعدمها بنفسها، وستتحرر من بول ستيفانوس!

وازداد خفقان قلبها للفكرة. ثم ان الفيلا قريبة من مدينة لوو وستستطيع بكل تأكيد ان تجد غرفة تقضي فيها ليلتها.

وأدارت مقبض حجرة بول وأضاءت النور. كانت هناك زجاجات عطر رجالي على مائدة الزينة، كما كانت بيجامته السوداء الحريرية ملقاة فوق السرير، ورائحة دخان سيكاره

ما زالت تعبق جو الحجرة. وتملكها الرعب لكنها سرعان ما تغلبت على اضطرابها واقتربت من الدولاب المحتمل ان يحتوي حقيبته.

ودق قلبها بعنف، فلم تجرؤ على الحلم بوجود طريقة للهرب من بول واسترداد حريتها التي كانت تعتز بها كثيرا. صحيح أنها منذ أربع سنوات، عندما كانت في السابعة عشرة من عمرها. كانت على وشك الوقوع في الحب مع فنان شاب، كان يعمل بالقرب من مدرستها الداخلية. ولكنها كانت قصة حب بريئة ومرحة. وخرج باري من حياتها كما دخلها. ولم تسمع عنه منذ ذلك الحين.

وفتحت دولاب بول، وقفزت بعصبية عندما أطلت عليها صورتها المنعكسة على المرآة الداخلية. أخافتها نظرات عينيها المشتعلة، فالصقت باب الدولاب بالحائط حتى لا ترى نفسها. ولمس كم سترة من التويد وجنتها وهي تنحني، فازاحتها عنها كما لو كانت ذراعا تحاول الامساك بها.

في الطابق السفلي وقف بول أمام احدى النوافذ متكئا بكتفه على اطارها ومتجها ببصره الى شاطىء البحر القريب من سلالم الفيلا. وفي الخارج اشتدت الرياح، وأخذت الأمواج ذات الزبد الأبيض تتكسر على الصخور، يضيئها نور القمر المتسلل من بين السحب، وصار صوت البحر كرعد يخترق الجدران، فوضع بول يده على صدغه الايمن، وكأنه يسمع صداه في أذنه:

وجاء يانيس الى الحجرة قائلا:

"معذرة ياسيدي. مكالمة خارجية للسيدة".

واستدار بول، وخرج من دائرة الظل بجوار النافذة، وقال وقد ظهرت الدهشة على وجهه:

"مكالمة لزوجتي؟ حسناً سأرد عليها يانيس".

وخرج الى الصالة، ورفع سماعة الهاتف وذكر اسمه،

وفي الحال وصل الى أذنيه صوت "مارتن دان" عبر الاسلاك، وكان مختلجا بالانفعال:

"بول... يجب أن أتحدث مع دومني حالا... من فضلك دعها تكلمني فالامر هام للغاية".

وتقلصت يد بول فوق سماعة الهاتف وهو يسأل:

"ماذا حدث"؟

"ابني دوغلاس أخبرني عن النقود التي أخذها منك. تلك الشيكات التي زورها باسمك".

وساد صمت. كما لو كان مارتن دان لا يكاد يصدق أن ابنه فعل ذلك واستطرد قائلا:

"بول... ابني شعر بأنه يجب أن يخبرني... من أجل دومني... انه يعتقد أنها تزوجتك، باعت نفسها في الواقع، لتنقذ كبرياءنا التعس".

"باعت نفسها لي؟ يا لها من فكرة عقيمة يا سيد دان! انها ترجع الى القرون الوسطى".

"أنا أعرف دومني، وما الذي يمكن أن تفعله من أجل من تحب... وأعرف أيضا أن ابنة أخي لا تستطيع أبدا أن تحبك ياستيفانوس، انك لست من يوافقها لانك من عالم آخر. أمازلت تنصت الي؟ اذن فأنا ألح في التحدث الآن مع دومني".

ووقف بول صامتا، وقد تجهم وجهه وبرقت عيناه الذهبيتان، ثم قال:

"أعرف أني من بلاد أخرى ياسيد دان، واني أتكلم الانكليزية بلكنة غريبة، ولكن شيئا من ذلك لا يغير حقيقة أن السيدة ابنة أخيك هي الآن زوجتي".

صاح مارتن دان بثقة:

"الزواج يمكن ابطاله".

سأل بول بلهجة مهذبة؟

"على أي أساس"؟
"عدم المعاشرة، هذا هو القانون".
"ربما يكون ذلك هو القانون، ولكن الحقيقة أيضا ياسيد دان، أنني ودومني انفردنا هنا لعدة ساعات. انها جذابة جداً ياسيدي. وأنا لست انكليزيا رقيقاً".
واشتد الصمت على الطرف الاخر، وارتسمت ابتسامة خافتة على وجه بول - كان مارتن دان رجلا انكليزيا مهذبا للغاية ملتزما في حياته بمجموعة من المبادىء وبصوته الانكليزي الجاف الممزق قال:
"ستيفانوس دع دومني تمضي، انك لا تحبها، انك تريد امرأة تكون رمزا لنجاحك في تلك الغابة من العالم، المال والتألق، لا شيء من ذلك يهم دومني".
"ولكن أن يكون في استطاعتها ان ترفع رأسها، وأن تواجه الناس، أمر هام بالنسبة اليها ياسيد دان. وهل يستطع واحد منكم أن يفعل ذلك، اذا وضعت دوغلاس في السجن"؟
وهل يمكنك أن ترفع رأسك، وأنت تعلم طول الوقت أنك أرغمت دومني على أن تصبح زوجتك؟ لابد انها تكرهك".
"انا رجل غريب. أفضل أن أتزوج امرأة تكرهني بشرف، على أخرى تحبني بدون شرف".
وبعد أن نطق بول بهذه الكلمات، وضع السماعة ليقطع الاتصال، ثم رفعها مرة أخرى وأسندها الى المنضدة، وعبر الصالة الصغيرة متجها الى صالة الطعام حيث كان يانيس يضع اللمسات الأخيرة للمائدة، وأخبره أنه رفع السماعة، وأنه يريدها ان تظل في مكانها. ولم يناقش يانيس الأمر. اذ كان بول السيد في بيته، حسب التقاليد اليونانية.
وقال بول وهو يداعب بأصابعه الورود الحمراء في الزهرية بين مكانه ومكان دومني، والشموع الكهرمانية المعدة للاضاءة.

"المائدة تبدو رائعة".
"سيكون العشاء جاهزا بعد عشر دقائق ياسيدي".
"اذن فمن الافضل أن أذهب لأخبر زوجتي. يا للوقت الذي تستغرقه النساء في ارتداء ملابسهن"!
وابتسم يانيس، وراقب بول بعينيه الداكنتين وهو يخرج من الغرفة. ثم لمس بدوره الورود. وزفر زفرة شديدة حركت لهيب الشموع التي أضاءها.
وصعد بول السلالم، واتجه الى باب غرفة دومني. ولم يتلق ردا على طرقه، فأدار المقبض ودخل، واتجه بصره في الحال الى الباب المشترك الذي كان مفتوحا على مصراعيه، ودخل بدون أن تسمع له وقع أقدام بفضل السجادة السميكة، وفاجأ دومني متسائلا:
"ماذا تفعلين"؟
كان كل شيء مبعثرا: قمصانه، وملابسه الداخلية، وأوراقه والادراج مفتوحة، ومحتوياتها ملقاة في كل جانب.
وسقطت الاوراق التي كانت دومني ممسكة بها، اذ استدارت لتتحاشى مواجهة بول. ثم وقف كل منهما يحملق في الآخر وأخيرا تقدم منها، وامسك بكتفيها. وقال:
"عم تبحثين؟ عن تلك الشيكات التي زورها ابن عمك؟ يا جميلتي البلهاء هل تظنين أنني من الحماقة احتفظ بها هنا، حيث يمكن أن تضعي يديك عليها؟ انها مودعة في أمان في أحد بنوك لوو".

٢ - اي حب ؟

بهذه الكلمات أطفأ بول بريق الأمل في قلب دومني التي وقفت في مواجهته بدون أن تحس الغضب في ضغوط يديه فوق كتفيها . كان يجب أن تدرك انه ما كان ليترك أمامها منفذا للهرب - لقد دفع فيها ثمنا غاليا ولم ينل بعد المقابل .

ووقفت بدون حراك، بينما أخذ هو ينقل بصره متأملا الدموع التي انسابت على وجنتيها الشاحبتين، وشعرها العسلي الغزير الذي تجعدت أطرافه بتأثير الحمام، وتهدلت خصلاته فوق كتفيها العاريتين، فبدا في انسجام آسر مع البشرة البيضاء الصافية .

ولاحظت دومني رجفة على ركن فم بول . ثم أسدلت جفنيها وهو يرفعها بقوة، ويحملها الى غرفتها ولم يتركها في الحال، بل وقف يتأملها ثم همس:

"ان نظرة البساطة يمكن أن تخفي متاهات معقدة".

وعاد يتفحصها ، ثم قال:

"لابد أنك تكرهنني للغاية ياصغيرتي حتى تثيري غضبي ببعثرة حاجياتي في أرجاء الحجرة، انك تستحقين صفعة على ذلك".

"سأعيد ترتيب كل شيء".

"بل سترتدين الآن ثيابك".

وسمعته يطلق ضحكة هادئة وهو يتركها تقف على قدميها ويقول:

"دومني... لا تحاولي الهرب مني أبدا سوف أمسك بك دائما ، وسأحتفظ بك طالما أن ذلك يسرني".

وأحست بالتهديد يسري من أطراف أصابعه الممسكة بها الى أعمق أعماقها . ثم انصرف الى حجرته ، وأغلق الباب خلفه بهدؤ .

ذهب ليعيد ترتيب أوراقه وحاجياته التي ألقتها على الارض لكن بعدما نجح في أن يشعرها بالخجل من تصرفها ، فأضاف بذلك وقودا الى النار التي كانت تحس بها وهي تبدأ في ارتداء ملابسها .

واختارت الثوب الأزرق المغطى بالاورغانزا البيضاء ، وكان هدية من صديقة تدير محل ازياء في الوست اند في لندن . كان طرازا رائعا ، وكانت دومني تعرف ان الخوف من بول هو الذي دفعها الى اختياره لعشاء العرس معه . ان بعثرتها غرفته أغضبه بشدة، وشعرت انها بظهورها في هذا الثوب الذي كان يمتزج فيه الأزرق مع الأبيض، تستطيع أن تحمي نفسها من هذا الغضب الذي يجعل منه عاشقا مرعبا !

وكان القرط المحلى باللؤلؤ والياقوت ما زال في العلبة على مائدة الزينة، لكنها عندما عثرت على المشبك بجانب ركن السرير ، اكتشفت أنها لا تستطيع ارتداءه هذه الليلة بالذات . وارتدت بدلا منه العقد اللؤلؤي الذي ظهرت به مع ثوب الزفاف والذي كان ملكا لأمها ، وشعرت بشيء من الراحة . والشجاعة ايضا .

واختارت عطرا فرنسيا . ثم تأملت نفسها في المرآة طويلا . رأت عينين حزينتين لامرأة تزوجت، لتنقذ كبرياء أسرتها ،

لن تحظى في هذا الزواج بالتقارب والتفاهم. لن تستمتع ببهجة او بمودة.

وباعصاب مرتجفة كجذور منزوعة من ارضها غادرت غرفتها في طريقها الى عشاء عرس كئيب، ولمحها بول عندما ظهرت على قمة السلم. وألقت نحوه نظرة جانبية لتعرف هل ما زال حانقا عليها. وطمأنتها ابتسامته التي سخرت من مخاوفها. وصعد اليها. وشعرت بخفقة في قلبها وهو يقول لها:

"تبدين كملاك في هذا الثوب... واشعر انك ستتلاشين فجأة وراء سحابة، وتتركيني وحدي".

ورمقته بفضول وهما يدخلان حجرة الطعام. ولأول مرة تساءلت اذا كان تزوجها رغبة في رفقتها وليس لجمالها فحسب.

وفي بدلة السهرة. كان خلابا أكثر من أي وقت مضى. شعرت به عملاقا اغريقيا في قميصه الحريري وسترته السوداء. ولم تكن هي ضئيلة لكن طوله الفارع جعلها تعاني ذلك الاحساس.

وفجأة داهمها الشعور بأنه يقاسي الوحدة. انه غني، ووسيم، وجذاب الى حد الروعة. لكن هذا الرجل كان وحيدا وغامضا. وهي أصبحت زوجته!

ولم تكن دومني ذاقت طعاما طوال اليوم، وشعرت فجأة بالجوع ويانيس يضع أمامها طبقا من المحارات الشهية. وهمست:

"يبدو لذيذا".

ومنحت يانيس ابتسامتها الحلوة. ابتسامة لم تمنحها الى بول قط، الذي لم تتنبه الى أنه كان ينظر اليها وهو يفتح الزجاجة. وفرقع غطاء الزجاجة، وفار السائل الذهبي، وانسكب على جوانب الزجاجة، وغمس بول اصبعه ومسح بها خلف أذن دومني، وقال مازحا في شيء من السخرية وهو

يملأ كأسها:

"هذا يجلب لك الحظ يادومني".

وجلس امامها، وملأ كأسه هو الآخر، ثم رفعها مرددا نخبا باليونانية. فسألته دومني دون أن ترفع رأسها عن الطعام:

"هل يمكن أن أعرف معنى ما قلت"؟

"قلت ان في كل كمكة زواج، الامل هو أحلى ثمرة".

وحينئذ رفعت بصرها، ولمحت ضؤ الشموع يسكب ظلاله على صدغيه وجبهته ذات الندبة. وسمعته يقول:

"مما يدعو للأسف أن أحدنا لم يعرف الآخر بما فيه الكفاية، فلو كانت الفرصة أتيحت لنا للرقص والنزهة لساعدك ذلك على أن تكوني أقل خجلا معي. لكن لا حيلة لنا في الأمر. كانت لدي أعمال هامة هنا في انكلترا استغرقت معظم وقتي. وهذه الاعمال هي التي أتت بي على غير ما توقعت".

وشعرت برجفة تسري في كيانها، لأن وصوله غير المتوقع الى انكلترا كان أول خيط في نسيج "الورطة" التي تعيش الآن دوامتها. فلم يكن هناك وقت لدى دوغلاس ليغطي خسائر المقامرة وليرد المبلغ الضخم الذي اختلسه من الشركة. وعجزت هي عن أن ترى ابن عمها الضعيف الجذاب، محكوما عليه بالسجن لحماقته... تمنت فقط أن يستوعب الدرس... ولو على حسابها!

وانتهيا من تناول الطعام، وأقبلت زوجة يانيس تقدم القهوة. كانت سمراء متحفظة، تجري في عروقها الدماء الرومانية. وقدمت لدومني هدية صغيرة، فرحت بها، حتى أنها نسيت برهة أنها ليست عروسا عن حب - كما كانت ليتا وزوجها يظنان - وكانت الهدية عبارة عن سلة صغيرة من المعدن والزجاج مليئة بالتفاح المسكر.

وابتسمت دومني قائلة:

"انها جميلة للغاية وغير عادية كم هو لطيف منكما"!

ووقفت ليتا لحظة تتأمل وجه دومني الجميل، ثم قالت:
"لتكن السعادة دائما من نصيبك، وليباركك الله وليمنحك"...

ونطقت كلمة باليونانية، وساد الغرفة صمت بعدما انسحبت ليتا وأغلقت خلفها الباب، وحينئذ لم تستطع دومني أن ترفع عينيها عن وجه بول. وتلاشى الاشراق من وجهها فجأة، وامتلأت عيناها بنظرات القلق وهي تسأل هامسة عن معنى الكلمة اليونانية التي نطقت بها ليتا..

ورد بول في هدؤ قائلا:
"تعني طفلا... صبيا"...

وتحركت الندبة فوق عينه عندما لمح الخوف في نظراتها، وانحنت هي بسرعة فوق صينية القهوة، وملأت الفنجانين الصغيرين، بالقهوة التركية، وعندما ناولت بول فنجانه كان وجهها مقنعا بالجمود.

وشربا عدة فناجين، ثم نهضت دومني، وأخذت تتطلع بقلق الى محتويات الحجرة من لوحات فنية وقطع أثرية. وأخيرا وقفت أمام الستارة الكبيرة التي تغطي النافذة. وفجأة تخلى عنها الهدؤ الذي التزمته أثناء تناول العشاء، وأخذ معه اهتمامها بجزيرة أنديلوس التي تحدث عنها بول. بهرها بعض الشيء وصفه جمال الجزيرة، وكلامه عن بيته القائم فوق ربوة عالية مطلة على شاطىء خاص، كان السكان يسمونه "بيت صخرة النسر".

وفجأة قالت بصوت مختلج:
"دعني أذهب يابول، دعني أذهب لو كان لك قلب، انت تعرف أنني لا أحبك".

وهنا تقطعت أنفاسها، واحتبس صوتها، وأمسكت الستارة بيدها كأنها تحتمي بها. وبينما كان بول ينهض من مقعده ويعبر الغرفة في اتجاهها، تأملته، رأت فيه قوة

النمر وسيطرته اذ يمكنه ان يسحق كافة العقبات التي تعترض طريقه الى ما يريد.

وسأل:
"وما هو المفروض أن أفعله اذا تركتك تذهبين؟ هل تتوقعين مني أن أحرق هذه الشيكات في مثل هذه الحالة، وأخرج خالي الوفاض، او أكتفي بالرماد"؟
"وما الذي يمكن أن يحققه لك زواجنا، لا شيء أيضا سوى ذرات رماد".

وكان اليأس يطل من عينيها وهي تتكلم، وهو أمامها بوجهه الوسيم وكل قسمة تنطق بالقوة وبالعناد. وعادت تقول:
"اذا أرغمتني على الحياة معك يابول... سأكرهك".

وأطلق ضحكة ناعمة وقال:
"الكراهية والحب متشابهان يا أسيرتي... كلاهما عاطفة عمياء".
"لا يوجد حب بيننا... ولن يكون أبدا".

وبرقت عيناها تؤكدان المعنى. وتقدم منها قائلا:
"آه... ولكنك تتكلمين عن الحب الرومانسي".

واقترب وامسك بوجهها بين يديه الدافئتين، وأخذ يبحث في أغوار عينيها وهو يقول:
"يمكنك ان تجدي لدي اي حب الا ذلك النوع الذي تقرأين عنه في الكتب".

وازداد خفقات قلبها وهو يتكلم. وفكرت في باري الذي أسعد قلبها وجعلها تتساءل عن الحب وأسراره...

وعاد بول يهمس:
"هل أخبرك رجل من قبل أن لك عينين رائعتين، أشبه بالسماء الصافية"؟

وأحنى رأسه وقال:

"يجب أن تفهمي يادومني أنني عندما أعقد صفقة أحرص كل الحرص على الوفاء بالتزاماتي، وأحرص ايضا على أن يقوم الجانب الآخر بالتزاماته".

همست مصدومة:

"ذلك في العمل، ولكن هذه حياتنا، سعادتنا، هل أنت متشائم الى حد يجعلك لا تؤمن بالسعادة؟ هل أنت جامد، حتى أن شيئا لا يؤذيك"؟

"لا يمكن أن يؤذيني ما يظنه الآخرون عني. انا يوناني، ولا يهمني الا ما أعتقده أنا في نفسي. عقدنا صفقة يادومني، هذا الصباح. أنت زوجتي، ولن أدعك تذهبين".

وأحست أنه يعني كل كلمة تطق بها، كان ذلك مسطورا على صفحة وجهه، الوجه الجميل، القاسي، تنبعث من عينيه اشعاعات تطاردها، وتخيفها. وفجأة تخلصت من ذراعيه، وقفزت من الشرفة الكبيرة، وأسرعت بجنون في اتجاه الشاطىء.

وتقاذفتها الرياح الباردة، وتعثرت فوق الرمال بحذائها ذي الكعب العالي. فوقها كان القمر مختفيا وراء السحب، يلقي عليها ضوءا باهتا من الظلال.

وألقت نظرة مذعورة خلفها. كان بول يتعقبها. وفي الضوء الخافت بدا وجهه شيطانيا. وانطلقت تجري بكل قواها. يأس غريب دفعها الى الهرب منه، حتى انها لم تتبين مدى قربها من البحر والصخور الناتئة عند طرف الشاطىء. وفجأة ارتفعت امواج البحر. وأطلقت دومني صرخة عندما تعثرت وسقطت على صخرة. ثم شعرت بموجة هائلة تغطيها، وتسحبها. واصابتها برودة الماء بصدمة بدأت تفقدها الوعي. لكن صوتا هادرا كان يتردد في أذنيها: "دومني... دومني" مصحوبا بكلمة يونانية ضاعت وسط هدير الامواج.

وقفز بول بعدما خلع حذاءه، غير عابىء بالعاصفة

وسبح بقوة في اتجاه الذراع النحيل الذي كان كل ما ظهر له من زوجته. وعلى ضوء البرق بدأ يلمح وجهها المذعور. وبعد لحظة، كان يضمها وسط الأمواج بينما تشبثت هي فيه بعنف كتشبث الانسان بالحياة وساعدها على رفع رأسها فوق الماء، وبدأت تتنبه، وتدرك من هو منقذها... بول... زوجها، الذي تركت جسمها المذعور في حمايته.

وحملها حتى الشاطىء، وصعد بها سلالم الفيللا، ودلف الى غرفة الجلوس من خلال الشرفة الكبيرة. وارتجفت دومني بين ذراعيه، وسعلت قليلا، وعندما نظر اليها تساقطت المياه من شعره الداكن على وجهها، وفتحت عينيها الزرقاوين وتحركت شفتاها بلا صوت ترددان اسمه.. وقال هو بمنتهى الرقة:

"كل شيء على ما يرام يا طفلتي الحمقاء، أنت الآن في أمان".

وأسرع الى الأريكة البيضاء بجوار المدفأة، وضغط على الجرس مستدعيا يانيس، الذي أقبل ليجد بول راكعا بجانب الاريكة، مقتربا من شفتي دومني المرتجفتين كأسا من الشراب. وحملق الخادم فيهما. وقال بول بلهجة جادة:

"كنا نتنزه على الشاطيء، وسقطت زوجتي في الماء أخبر ليتا أني أريد زجاجات ماء ساخن في سرير زوجتي حالا. وايضا أن تعد لها حماما ساخنا. واحضر لي ازار الحمام السميك، بسرعة".

وجرى يانيس الى المطبخ، وباليونانية شرح لليتا ما حدث، فبدت الدهشة في عينيها، وقالت:

"هذه كارثة ليست علامة طيبة يا يانيس. يقال ان من يغني في الصباح يبكي قبل الصباح التالي".

"ما الذي تتحدثين عنه أيتها المرأة"؟

وحدق يانيس في زوجته بينما كانت تملأ الزجاجات بالماء الساخن. فقالت:

"ألم تسمعه يغني قبل الافطار هذا الصباح؟ عروسان يتنزهان على الشاطىء في ليلة عاصفة... أليس ذلك غريبا"؟

"تعتقدين أنهما تشاجرا"؟

"أظن أنه من الافضل أن تسرع باحضار ازار الحمام، والا ملأ البيت صياحا".

وبعدما احضر يانيس الازار لسيده، قال بول لدومني:

"ساخلع ثيابك المبللة، لا تقاوميني والا عرضت نفسك للانهاك أكثر مما أنت عليه الآن".

وكانت بالفعل منهكة جسمانيا وعقليا، وارتجفت مثل قطة مبللة. كانت نظراته ولمساته أبوية، وكان حانيا وهو يلفها في الروب، وعندما رفعها عن الأريكة، تركت ذراعها يلتف حول عنقه، وظلت على هذا الوضع وهو يصعد بها السلالم الى جناحهما الأبيض، حيث كانت ليتا في انتظارهما. فقال لها:

"أعطها حماما ساخنا ثم ضعيها في سريرها، وناوليها كوبا من الحليب الساخن".

وأومأت ليتا برأسها، وقالت دومني وهي تقاوم ضعفها:

"تصبح على خير يا بول، انا، أنا آسفة على خروجي وسط العاصفة".

"أنا أيضا آسف. في أية حال، انسي ما حدث، وحاولي النوم. سأراك في الصباح".

وانصرف الى غرفته مغلقا الباب خلفه جيداً. وبعد لحظات قليلة لحق به يانيس وقال:

"أعددت لك حماماً ساخنا ياسيدي".

وفي شرود سأل بول:

"ماذا قلت يا يانيس"؟

"أنت مبتل تماما ياسيدي، الحمام جاهز".

وابتسم بول وربت على ذراع خادمه شاكرا،

واستسلمت دومني للنوم بمجرد أن انتهت من

شرب الحليب. كان نوما ثقيلا في البداية، بلا أحلام، ثم فجأة، حلمت أنها تجري على شاطىء بارد. تسمع هدير الموج، وتحس بكعبيها العالي يغوص في الرمال، وكان القمر يطل عليها من خلال السحب. وشيئا ما كان يتعقبها. واستدارت والقت نظرة سريعة، فرأت قطا ضخما يطاردها تتسع عيناه بريقا ذهبياً مخيفا. كانت متأكدة أن الحيوان اذا أمسك بها، فسيمزقها اربا.

واخذ يتقدم ويتقدم، وعندما أوشك أن يمسك بها، صرخت.

"دومني، طفلتي، ماذا حدث"؟

وأفاقت على الصوت، وتلاشى الكابوس، ووجدت النور مضاء، وبول منحنيا فوقها، ممسكا بكتفيها بيدين دافئتين ثابتتين. وعاد يقول بخبث وقلق معا:

"هل من عادتك أن تصرخي في نومك"؟

"هل... هل صرخت حقا"؟

وتأملته على الضوْ الخافت خصلات شعره الداكن متهدلة فوق جبينه. والبيجاما السوداء الحريرية مفتوحة، يظهر منها صدره العريض الكثيف الشعر.

وسألت:

"كم الساعة؟ هل اقترب الصباح"؟

"جاوزت الساعة منتصف الليل بقليل".

ثم افتر ثغره عن ابتسامة كشفت أسنانه البيضاء وهو يقول مازحا:

"أرجو فقط ألا يكون يانيس وزوجته سمعا صرختك".

وهزت كلماته قلبها، ورغم ذلك وجدت نفسها تبتسم وتقول هامسة:

"اعتقد أنه كابوس، يا للغرابة، لم يحدث لي ذلك منذ كنت طفلة".

ونظر اليها بول، ثم جلس على حافة سريرها .. وسألها:
"هل كان كابوسا يتعلق بي؟ ولكني يادومني لن أسيء اليك أبدا. ألا تعرفين ذلك"؟

وأمسك بيدها ورفعها الى قلبه، وضغطها. وعلى الضوء الباهت تأملت دومني وجهه، ومن جديد لمحت معاناة الوحدة على ملامحه فظلت راقدة بلا حراك وهي ترنو اليه بعينيها الزرقاوين الواسعتين. كانت ترى غريبا ليس سوى زوجها وفي اليد التي ضمها الى قلبه الغريب، الأجنبي، المعقد، لمحت الخاتم الذهب الذي يؤكد حقوقه عليها.

٣ - الهدية المرفوضة

عندما استيقظت دومني، كانت أشعة الشمس تسللت من خلال ستائر حجرة النوم لكن خلال لحظات ظلت غير قادرة على معرفة مكان وجودها. وتجولت ببصرها في أرجاء الحجرة، ثم وقع نظرها على صينية الشاي الموضوعة على مائدة بجانب سريرها. وحدقت في آثار على الوسادة المجاورة، وفي لمحة عادت اليها ذاكرتها... لقد تزوجت بول ستيفانوس، اليوناني الوسيم الغامض، الذي يملك خطوطا للملاحة البحرية، والذي سرق منه ابن عمها دوغلاس مبلغا كبيرا.

وكانت يداها ما زالتا تشعران بملمس كتفي بول العريضتين الصلبتين، وعقلها ما زال واعيا للكلمات اليونانية الغريبة التي همس بها محموما في الليلة الماضية. وتذكرت أنها استغرقت في النوم قربه.

وجلست وسكبت لنفسها فنجان شاي. ورشفت منه بابتسامة على شفتيها. ورنت باسترخاء الى يدها اليسرى حيث خاتم الزواج، مشيرا لها بمستقبل لا تجسر على التفكير فيه.

واخذت حماما ثم ارتدت بنطلونا وبلوزة بيضاء من الحرير، وبعدما مشطت شعرها، عقصته الى الخلف بمشبك، ولمحت

في المرأة النظرة الجديدة في عينيها، نظرة المعرفة العميقة الغامضة. وارتسمت على فمها ابتسامة وهي تتأمل عنقها الطويل... الا ان امتلاكه اياها في الليلة السابقة لم يفزعها، ولمحت احتقانا ينساب الى وجنتيها، واستدارت بسرعة لتهرب من عينيها.

وعندما دخلت غرفة الطعام، كان بول أمام المائدة يقرأ صحيفة الصباح ورفع رأسه وابتسم قائلا:

"صباح الخير يا سيدة ستيفانوس".

ووقفت في حياء بعدما ردت التحية، ثم جلست بدورها. ولاحظت الشمس تلقي بأشعتها على شعر بول الداكن. واطمأنت الى أن عاصفة الأمس انتهت على خير، واصبح الجو صافيا، وأبدت هذه الملحوظة لبول الذي سألها:

"هل نذهب الى لوو في السيارة، أم تفضلين السير"؟

"دعنا نسير".

"حسناً".

وصب لها القهوة، وتلامست أصابعهما وهو يقدم لها الفنجان. والتقت عيناهما وسمعته يقول:

"تلاشت الظلال من عينيك هذا الصباح يادومني".

وخيل اليها أن هذه الظلال القاتمة استقرت في عينيه، لكنها ما لبثت أن تبينت وهم أفكارها عندما رأته يبتسم في مرح طفولي، ثم يطلق ضحكة قائلا:

"يسرني ان حادثة الأمس لم تصبك بأذى".

"انني بخير".

ولم تنظر اليه لكنها أحست فجأة بالدماء تتصاعد الى وجنتيها. وسألت:

"هل أنت بخير"؟

"بكل تأكيد يازوجتي العزيزة".

وفتح ذراعيه مثل قط قوي سريع الحركة، ولاحظت

على السترة التي يرتديها علامة بيت أزياء مشهور في اسكتلندا، فسألته عما اذا كان قد زارها، فأجاب:

"لقد سافرت الى أماكن عديدة، ولكني أشعر دائما باللهفة للعودة الى أنديلوس. الشمس هناك حارة يادومني، وعليك أن تأخذي حذرك حتى لا يحترق جلدك الانكليزي الرقيق".

وشعرت بخفقان عصبي في قلبها لاشارته الى الجزيرة حيث ينتظرها مستقبل مجهول، وقالت:

"بل سأتعرض للشمس قدر الامكان، لاكتسب سمرتك نفسها".

وأسند ذقنه الى يديه، وأظهرت ابتسامته مدى جاذبية فمه، وقال مازحا:

"هل تجرؤين على أفساد هذه البشرة البديعة؟ انك ملكي الآن يا سيدة ستيفانوس. ببشرتك البيضاء وكل شيء فيك".

علقت ساخرة:

"بالطبع، اختطفتني كأسيرة، أليس كذلك"؟

واختلج صوته وهو يسألها:

"هل أنت نادمة يادومني على ليلة الأمس؟ كنت جميلة للغاية ورائعة،لم أستطع أن أتركك. أعرف أنني لست رجلا يسهل اكتشافه او التعامل معه لكني أعتقد أنه يمكنني أن أسعدك، اذا سمحت لي بذلك".

والتقت عيناها بعينيه، وتذكرت من جديد السعادة المتبادلة غير المتوقعة التي غمرتها ليلة الزفاف، والتي كانت نهاية غريبة ليوم عصيب. وتركته يحتضن يدها، ويلمس خاتم الزواج الذهبي في اصبعها، ثم قالت:

"حدثني أكثر عن الجزيرة".

ولم تسأله من قبل مطلقاً عن وطنه واهله بمثل هذه اللهفة. والآن عرفت ان أخاً يصغره مات منذ ثمانية عشر شهرا، وله ايضا أخت غير شقيقة تعيش مع عمته صوفيولا

وابنها نيكوس، في بيت قرب ميناء انديلوس، وعمته تزوجت من ضابط بحري. فالبحار والسفن في دماء كل أفراد أسرة ستيفانوس، ونيكوس كان يستعد ليصبح شريكا في خطوط بول البحرية عندما يبلغ الواحدة والعشرين من عمره.

وسالته عن اسم اخته التي لم تكن تعرف بوجودها، واخذت تتأمله، مدركة أنها لا تعرف عنه الا القليل. وابتسم قائلا:

"اسمها كارا وهي في السادسة عشرة من عمرها وكثيرة الحركة عفريتة ولكن لطيفة ومرحة كالغزال البري".

"لا أعرف الا القليل عنك وعن أهلك يابول".

واستقرت عيناها على الندبة، واستأنفت قائلة:

"مثلا، كيف جرحت"؟

"آه، هذه قصة طويلة، ربما حكيتها لك ذات يوم، ولكن ليس هذا الصباح".

وابتسم وظلت عيناه جامدتين. وبدافع خفي نهضت دومني، ودارت حول المائدة لتقف بجانبه. وأمسك بها في صمت. ثم جذبها وتأمل وجهها بعينيه، هذا هو بول: رددت ذلك لنفسها، ودخل يانيس بعدما طرق الباب، وانتظر لحظة واحتقن وجه دومني وهمت بأن تفلت لكنه تمسك بها بدون حرج، بينما كان يانيس يسأل اذا كانا يرغبان استعمال السيارة فينظفها. ولكن بول أخبره أنهما سيتنزهان سيرا على الأقدام حتى مدينة لوو، وسيتناولان غداءهما هناك.

وانحنى يانيس، لكنه لم يستطع أن يحتفظ بجديته المعتادة عندما وقع بصره على دومني بين ذراعي سيده، وقد احتقنت وجنتاها بشدة.

واستطرد يانيس يقول:

"امر آخر ياسيدي. لم أستطع تنظيف الأريكة، فمياه البحر والرمال أتلفت حريرها الرقيق.

وابتسم بول وهو ينهض واقفا وقال:

"لا تقلق يا يانيس، ربما تستطيع ليتا تدبير غطاء مؤقت للأريكة. وساعوض أصحاب الفيلا تعويضا مناسبا. ثم اننا لن نبقى هنا أسبوعا.لقد أتصلت تليفونيا بالمسؤولين لتغيير موعد الحجز في الطائرة - سنطير الى أثينا صباح غد".

وكان لنظرة الدهشة في عيني يانيس صداها في عيني دومني عندما حدقت في وجه بول وسألت:

"لماذا التغيير"؟

"لنقل أنه الحنين الى وطني وبيتي - لا أستطيع الانتظار طويلا يازوجتي الصغيرة قبل ان أريك جزيرة أنديلوس".

وربما كان صادقا، لكن دومني بدأت تعرف أنه عندما يكون شارد التعابير، فاما انه قلق، أو أنه يضيق بشيء ما. وأحست هذه المرة بأنه قلق ولهذا الأمر صلة بها.

وبعد نصف ساعة بدأت مسيرتهما الى لوو. كان يوما مشرقا من أيام الربيع، وأحست دومني وهي الشغوفة دائما بالحياة في الهواء الطلق، بالتجاوب مع الجو، ومع المناظر الطبيعية، وايضا مع الرجل الذي كان يسير بجانبها.

شعرت أنها عروس في ذلك اليوم، وغمرتهما نظرات اعجاب كثيرة وهما يدخلان المدينة، ويتجهان الى المصرف، كانا في طريقهما الى استرداد الشيكات المزورة. وفكرت دومني في تلك المخلوقة الخائفة التي تسللت الى حجرة بول في الليلة السابقة، محاولة العثور على هذه الشيكات واتلافها، حتى تكون حرة في الهرب من ذلك الزوج.

واختلست نحوه نظرة. كانت أشعة الشمس تنعكس فوق شعره الأسود المجعد. وكان يضع نظارة شمس قاتمة على عينيه، اذ كانت عيناه - كما أخبرها - لا ترتاحان الا في الضوء الخافت، وكان يعاني صداعا اذا لم يحجبهما عن الشمس من وراء النظارة ظهر ذلك الغريب الغامض الذي اقتحم حياتها، وارغمها على الزواج. ذلك الرباط الذي لن ينفصم

الا بموت أحدهما .

وبينما ذهب هو الى المصرف، تفرجت دومني على واجهة محل لبيع التحف . وبدافع خفي دخلت، وسألت عن ثقالة ورق صغيرة من النحاس على شكل حيوان أشبه بحصان له قرن.. أرادت أن تقدمه لبول . لسبب أنثوي غريب!

وأقبل بول من المصرف، في الوقت الذي خرجت هي من المحل . وهرعت اليه، وشعرها العسلي الكثيف يتطاير . ومدت يدها اليه بالهدية قائلة:

"انظر، هل تروق لك"؟

وابتسم قائلا :

"هل كنت تبحثين لنفسك عن لعبة؟ كم ثمنها؟ سادفعه".

"لا يمكن، هذه هدية مني، سيبدو النحاس لامعا جميلا كعملة جديدة بعد أن افركه".

"احقا تقدمينها لي"؟

سكتت . ثم استطردت قائلة:

"اعتبرها هدية الزواج، لا يمكنني أن أقدم شيئا أغلى منها".

همس بول:

"انها هدية غالية لأنها منك".

وأعاد النظارة فوق عينيه، فلم تستطع أن تقرأ فيها الاثر، ولكنها أحست من نبرات صوته أنه أحب هديتها الصغيرة.

وتراقصت ابتسامة على شفتيه وقال وهو يمد يده اليها :

"ما هي الشيكات يادومني، لكن أخشى ألا أستطيع احراقها وسط الطريق".

"اذن ننتظر حتى نعود للفيلا".

وخفق قلبها بعنف، كانت تريد اتلاف الشيكات بعيدا عن حياتها الى الابد، لكنها أحست أن من واجبها أن تظهر لبول أنها تثق به.

وصاح هو:

"كلا... يجب أن ننتهي من أمرها".

وتلفت حوله، ورأى سلة المهملات قريبة، وبسرعة مزق الشيكات قطعا صغيرة، وتطاير بعضها، ولمحت خط دوغلاس عليها، ولمحت أيضا اسم بول.

وتناولا طعام الغداء في مطعم قديم، ثم وجدا مكانا منعزلا على الشاطىء الرملي، وتمددت دومني، وتوسدت ذراع بول، وهي تنصت الى هدير الموج، ونبضات قلب زوجها الغامضة. وأحست بالدفء يسري في كيانها . وأيضا بالراحة، وهي في رفقة هذا الرجل، الذي تساءلت اذا كانت ستحقد عليه، لانه انتزعها من فردان... ومن حياتها الوديعة.

وداعب شعرها وقال:

"دومني، ساطلب منك أن تعطيني وعدا ، وسأتوقع منك الالتزام به".

وحدقت في وجهه الذي بدا عابسا . وأحست أنه ما زال غريبا عنها . وسألت:

"ما نوع الوعد الذي تريده مني"؟

"أن تبقي معي، مهما يحدث بين اليوم والغد . عندما نترك انكلترا لنذهب الى اليونان".

وانتفضت جالسة.. وازاحت شعرها الى الوراء بعيدا عن عينيها . وتنهدت وسألته في قلق:

"ما الذي يمكن أن يحدث يابول"؟

"ربما عدت الى كراهيتي ثانية".

وامسكت بذراعه وقالت:

"انك تخيفني يابول، لقد كنا سعيدين اليوم.. هذه السعادة يمكن ان تستمر".

"من يمكن أن يتنبأ بالمستقبل"؟

والتقط ثقالة الورق الصغيرة وأخذ ينظفها من الرمال التي علقت بها ، ثم عاد الى القول:

"هل تعرفين الى أي شيء يرمز هذا الحيوان الذي يشبه الحصان"؟

وهزت رأسها بالنفي. ولمحته عابسا شاردا فشعرت باصابع باردة تعتصر قلبها-مزاجه المفاجىء-من دقائق كان يعانقها فوق الرمال، والآن تعكر مزاجه وبدا مكتئبا، وأعاد النظارة القاتمة الى عينيه، وقال:

"هذا الحيوان يرمز الى أكثر الامور مراوغة في العالم، السعادة الحقيقية. انه مخلوق وهمي، خيالي، وكذلك شأن السعادة: مجرد وهم بالنسبة الى البعض قد يمزقها الألم والكوارث، ولكن ذلك في الحقيقة لا يقضي عليها تماما. وبالنسبة الى البعض الآخر يوجد شق في الاساس منذ البداية، ولذا قد تتداعى أمام أول عقبة. وأساس علاقتنا به شق يادومني وكلانا يعرف ذلك".

وارتجفت لسماع كلماته، بينما استطرد هو يقول واضعا يده فوق يدها:

"يجب أن آخذ منك وعدا بانك ستستمرين معي مهما حدث".

وبدا كلامه غامضا، وشعرت انه يئن تحت وطأة الشعور بالذنب. وذاب قلبها ونظراتها تستقر على الندبة التي لم يشأ ان يحدثها عنها وقالت:

"أنت زوجي في السراء والضراء. اننا لا نستطيع أن نحطم رابطة الزواج، وان كنا نستطيع أن نحطم أشياء أخرى".

"اذن فهذا وعد"؟

"انه وعد يابول".

وتنفس الصعداء - ثم أشعل سيكارة وكان لا يزال شاردا، اذ ظل عود الثقاب بيده حتى أحرق أصابعه. واستمرت دومني تراقبه، وسرت عندما بدت عليه علامات الارتياح بعد قليل. فجأة سألته:

"أنت لست يونانيا تماما، أليس كذلك يابول"؟

واستدار في دهشة!

"كيف عرفت"؟

"من عينيك، عندما أستطيع رؤيتهما، وأيضا من تكوينك".

"جدتي انكليزية، ولكن ما دخل تكويني في كوني لست يونانيا مائة في المائة؟ ألم يكن قدماء الاغريق طوال القامة"؟

وابتسمت.. واقتربت منه بوجهها قائلة:

"وهل اخترت أن تتزوج انكليزية من أجل جدتك"؟

"ليس تماما لكن في أية حال، للانكليزيات سحر غامض".

"تعني اننا لا نعرض بضاعتنا كلها في واجهة المحل"؟

وضحكت ووجدت أصابعها واصابعه وسط الرمال، وقال هو يلتهمها بعينيه:

"تماما، الرجل دائما يتوقع منهن غير المتوقع".

"هل عرفت كثيرات من بنات وطني يابول"؟

"تراني أثرت بعض غيرتك"؟

"كلا".

وأطلقت ضحكة عصبية، بينما كان هو يعتصر أصابعها بين أصابعه. واقتربت من صدره، وخبأت فيه وجهها خجلا من الأحاسيس التي استبدت بها انبهارا برجولته. وتمتمت:

"يالك من متوحش"!

وضمها في قوة وقال:

"ان من يوصفون بالمدنية ليسوا كذلك تماما يا أسيرتي، لكن أمازلت أخيفك؟ أمازلت في نظرك الرجل الجامد القاسي؟ لم تكوني بالأمس خائفة عندما ضممتك، وامتزجت نبضات قلبينا".

همست في حياء:

"لا أستطيع، لا أستطيع أن أتكلم عن ذلك".

وألقى سيكارته فاستبدت بها أحاسيس عنيفة، وفي

الوقت نفسه مخيفة وأحست أنها لا تستطيع أن تفهمه أبدا ، أو أن تعرف القوى الخفية التي تحركه، وتجعله يتقلب بين الرقة والعنف.

ما الذي كان يريده منها؟ الحب؟ ولكن كيف كان لها أن تخبره بأنها تحبه، وهي نفسها لا تعرف حقيقة مشاعرها نحوه؟

وعادا الى الفيلا مع غروب الشمس، وعند دخولهما الصالة، وقع بصرهما على مظروف أصفر بجانب الهاتف،كانت برقية باسم دومني. وفتحت المظروف بأصابع مرتجفة، وراقبها بول وهي تقرأها، وعلى وجهه قناع غامض. وعندما رفعت عينيها أخيرا، نظرت اليه من رأسه الى قدميه. أحست كما لو كانت قد أمضت الثماني عشرة ساعة الأخيرة نائمة تحلم والآن استيقظت من جديد استيقظت على الكراهية التي لم تقاومها الا لفترة محدودة.

وكان بول هو الذي بدأ الكلام، قال:

"هذه البرقية من عمك طبعا".

وناولته اياها بدون أن تنطق. وقرأ:

"عرفت بأمر الشيكات من دوغلاس - اتصلت ببول هاتفيا ليلة أمس. عودي ياعزيزتي".

وبصوت بارد قالت دومني:

"اذن اتصل بك عمي ليلة أمس"؟

"هذا صحيح ياعزيزتي".

"رغم علمك بأن دوغلاس اخبر والده بالأمر كله، ورغم ذلك جئت الي و.. و"..

"لم أتعمد ذلك يا دومني، وأعتقد انه لا يجوز أن يصيح أحدنا في وجه الآخر في الصالة... أمام يانيس وزوجته".

وأمسك بذراعها ورافقها نحو غرفة الجلوس وأغلق الباب ثم اسنده بظهره وقال بهدوء:

"جئت اليك ليلة الأمس لانك صرخت أثناء نومك، وكنت قلقا عليك. ولكن.. لو أنك رفضت وجودي لعدت الى غرفتي. انك لم تصديني ولذلك... ولا يمكنك أن تنكري أنك نسيت كراهيتك لي ليلة الامس، وأنك كنت لطيفة معي طوال هذا اليوم".

وأطلقت دومني ضحكة متوترة. وتأملته اذ فقد سحره في عينيها وقالت:

"اردت أن تتمتع بلعبتك الجديدة، بملكيتك، وكان لك ما اردت.انت قلت ذلك في هذه الغرفة ليلة أمس وكان علي أن أفي بالتزاماتي الزوجية سواء رغبت في ذلك أم لم أرغب. ولابد انك مسرور لأنك نلت ما تريد بدون مقاومة".

"كلا يا دومني، كلا".

"لا تلمسني. لا تلمسني والا أصابني الغثيان من مشاعري الحمقاء، ومن اعتقادي لفترة انني يمكن أن أتعلق بك، لابد انك طوال اليوم كنت تسخر مني! عندما مزقت الشيكات، عندما تركتك تقبلني فوق الرمال حسنا، اذا كان جسمي هو ما اردت. اذن فلك ما اشتريت، ولكنك بكل مال الدنيا لا يمكن أن تشتري ثقتي او حبي وزوجة بدونهما لا تعني شيئا يابول".

وتجمدت تعابير وجهه، وبدا كما لو كان تمثالا من حجر. وقال:

"احتفظي بحبك لنفسك،هل طالبتك به مرة"؟

"كلا، ليس بالكلمات، ولكن لا أعتقد أنك لست انسانا حتى تستمتع طويلا بصحبة زوجة تكرهك. كيف تجرؤ يابول على حرماني من حرية الاختيار بين فردان وانديلوس"؟

"اليوناني وحده يستطيع أن يتحدى الأقدار، ولو أنني تركتك ليلة أمس تتحدثين مع عمك، لهربت الى فردان، الى عمك، هل هذا كل ما تطمعين به في الحياة؟ ان تظلي فتاة تقوم

بكل الاعمال في بيت ليس بيتها، بيت مرهون حتى آخر جزء فيه"!

"فردان بيتي، ووطني، احب كل حجر فيه، لا أستطيع أن اشعر بذلك بالنسبة الى بيتك".

"ولكنك ستعيشين هناك معي".

"لانني أعطيتك وعدا، ولن انكث بوعدي".

"شكرا يادومني".

وتجمدت نظراتها وهي تقول:

"لا تشكرني يابول، لانك ستندم فيما بعد على أنك جئت الى فردان والتقيت بي".

وفتحت الباب، واتجهت الى السلم. كانت تنتفض انفعالا وشعرت بالضعف وهي تصعد الدرجات، واضطرت أن تستند على سياجها، وتنفست الصعداء عندما وصلت الى حجرتها، واستلقت فوق سريرها، ودفنت وجهها في الوسادة لم تستطع البكاء تجمدت الدموع في عينيها. وشعرت بثقل خاتم الزواج في اصبعها أشبه بالقيد الذي يربطها برجل بلا قلب: رجل أرغمها على زواج لا حب فيه تحدث عن الشق الموجود في نسيج علاقتهما وقال ان أول عقبة يمكن أن تحطم هذه العلاقة... كان يعرف أنها لن تغفر له خداعه وسخريته من ثقتها به ليلة الامس.

وسرت رجفة في أعماقها وهي تتذكر الكلمات التي همست له بها:

"اترك ذراعيك حولي يابول... ودعني أنام هكذا".

٤ - مرارة الرواسب

حان موعد العشاء، وارتدت دومني ملابسها، برغم رغبتها القوية في أن تغلق عليها غرفتها، ولا ترى بول أبدا. كانت انكليزية حقيقية، وما كانت لتلوذ بركن مظلم تخفي فيه نفسها لمجرد انها جرحت. كان عليها أن تظهر بوجه شجاع لتواجه عدوها ببقايا ما ترك لها من كبرياء.

واحس بول وهو يتأملها عبر مائدة العشاء، أن الفجوة بينهما لم تكن أبدا على مثل هذا الاتساع. كانت مهذبة، وكانت تنصت اليه، وترد عليه، وهو يخبرها عن أنواع السفن المختلفة التي تملكها شركته، بل انها تكلفت ابتسامة صغيرة عندما سرد عليها بعض نوادره عن الركاب. لكن ألما قاتما كان يومض في عينيها الزرقاوين بين الحين والآخر.

وذهبا بعد العشاء الى غرفة الجلوس حيث أعد بول آلة العرض وشاشة عرض عليها مجموعة الأفلام التي صورها بنفسه لرحلاته، اذ كانت هذه هوايته. كانت الافلام مليئة بالمناظر الخلابة، ولكن لم تكن توجد لقطة واحدة يظهر فيها وسط مجموعة أصدقاء، أو حتى رفيقة واحدة. وعندما انتهى العرض، وأضاء النور سألته دومني:

"هل تسافر دائما عندما تكون في أجازة"؟

وسكب شرابا ، وابتسم قليلا وهو يناولها كأسا وقال:
"أحب أن أنطلق وحدي، انه شذوذ غير مؤذ أليس كذلك؟ في أية حال فاني أصحب يانيس معي كمرافق، لأنني كسول للغاية لا أعرف كيف أرتب ملابسي".
وأخذت تتأمله بفتور ولا مبالاة. وقالت لنفسها ان رجلا بمثل وسامته لا يمكن أن يقضي أمسياته دائما وحيدا ، حتى لو كان ذلك شأنه نهارا . لابد أن نساء أخريات كن في حياته. نساء أحسسن بجاذبيته، وحاولن ترويضه. ولكن لا ترويض لرجل مثله!
ولما كانت تنسى أفكارها الحزينة أثناء كلامه، قالت متعمدة:
"حدثني عن اليونان".
ورفع كأسه لتحيتها، ثم استلقى في مقعده، بينما ألقت الأضواء ظلالها على وجهه . وقال:
"اليونان أرض المتناقضات، أرض الشمس المشرقة، والظلال، أرض التسامح والانتقام. بعض الأجزاء قاحلة، والأخرى غنية بمحاصيلها من العنب والتين والزيتون والصنوبر . آه الصنوبر . انه يملأ المكان برائحته الحلوة".
وسكت. وحدق بعينيه الداكنتين في نار المدفأة. وعاد يقول:
"اليونان أرض اما أن تحب، او ان تكره مثل أهلها . والأساطير القديمة ما زالت حية في أطلالها، وعندما تشاهدي مدينة أثينا الآن من الصعب أن تصدقي أنها منذ أعوام ليست عديدة، كانت ممزقة ببشاعة. الأخ كان يقاتل أخاه، والكثير من اطفالنا أخذوا عبر الجبال الباردة كقطعان الغنم الى البانيا وبلاد أخرى معادية . ما كنت الا طفلة يادومني عندما حدث كل ذلك".
وقالت برقة لأنها عرفت مدى حبه لليونان:

"أنت نفسك يابول لم تكن كبيرا".
قال في ابتسامة جافة - جافة وحزينة - أشبه باوراق الخريف عندما تسقط عن الأشجار لتموت على الارض:
"كنت كبيرا بما فيه الكفاية لأن أرى الكثير . لكني لا أتكلم على هذا النحو لاستميلك يادومني، او لأكسب مودتك".
"بالطبع لا ، ليس العطف هو ما تريده يابول، أليس كذلك"؟
واعتلت ابتسامة شفتيه . وقال:
"أتساءل اذا كنت تؤمنين بالروابط القدرية. كان من المحتم ان نلتقي... فما رأيك"؟
"أرى ان القوى الخفية ليست دائما رؤوفة بالبشر".
وأصبح الحديث بينهما متقطعا . وطالت فترات الصمت، وصارت كل حركة تنمي احساس كليهما بالتوتر . فعندما بدأت النار تخبو في خشب المدفأة، التقت عيناهما فوقها . وعندما تحركت الستائر، متأثرة بتلك التيارات التي تغزو الغرفة عندما تخفت فيها نار المدفأة. التقت عندها مرة أخرى عيناهما .
وعقدت دومني يديها في حضنها . يجب عليهما أن ينهضا الآن، وان يصعدا الى الطابق العلوي. لا يستطيعان البقاء الى مالا نهاية في غرفة الجلوس التي بدأت تضيق بوجودهما وتحفزهما على الخروج منها .
ثم فجأة بدأت الساعة تدق، وتعلن منتصف الليل، وقفز بول واقفا ولمحت دومني الخشونة المباغتة التي اكتسى بها وجهه وهو يصيح:
"اصعدي الى الطابق العلوي فلن المسك اعرف أنك تشمئزين لمجرد رؤيتي".
ونهضت بدورها ، ووضعت كأسها جانبا ، وكان وجهها خاليا من التعبير وهي تقول:
"تصبح على خير يابول".

ورد عليها التحية باليونانية، وخرجت من الغرفة·· رشيقة في ثوبها الازرق متثاقلة قليلا في مشيتها كطفلة صغيرة متعبة· وتتبعها بول بنظراته حتى أغلقت الباب خلفها، وحينئذ تقلصت أصابعه حول الكأس، فانكسر محدثا صوتا، وسالت قطرات المشروب على يديه·

لم تسمعه دومني يدخل غرفته المجاورة الا في وقت متأخر· وتمددت متوترة وهي تفكر "يجب ألا أصرخ الليلة اذا نمت" لكنها في النهاية وقد انهكتها عواطفها الممزقة - نامت نوما عميقا، حتى أيقظتها ليتا حاملة اليها شاي الصباح·

وكان عليهما أن يغادرا المكان في الثامنة والنصف، لكن كان على دومني ان تتحدث مع عمها قبل الرحيل· التحدث اليه البارحة كان مستحيلا، اذ كانت في حالة اضطراب لا تسمح لها بذلك· ولكن هذا الصباح استردت بعض الهدوء، وتيقنت أنها تستطيع أن تبدو مقنعة عندما تقول لعمها أنها متشوقة لرؤية الجزيرة التي ولد فيها زوجها، حيث سيعيشان·

وكان بول يقف في غرفة الجلوس مع يانيس أمام الحقائب، عندما أدارت دومني الرقم الذي يوصلها ببيت طفولتها· كانت تريد ان تطمئن عمها مارتن الى أنه لا حاجة به الى القلق على دوغلاس ودعت الله في صمت أن تستطيع اقناعه بأنها سعيدة في زواجها ببول ستيفانوس·

وأقبل زوجها من غرفة الجلوس بينما كانت في انتظار توصيلها بفردان، ونظرت الى وجهه الطويل الأسمر وهو يصعد السلم، ويمشي في الممر المؤدي الى الجناح الأبيض· تركها تتحدث بحرية ولكنها لم تشعر نحوه بالعرفان، لأنه لم يتصرف بشهامة الا بعدما أملى ارادته·

ولكن الدفء أخذ يسري في صوتها وهي تقول:

"عمي مارتن··· كيف حالك أيها العزيز"!

وتكلمت دومني مع عمها خمس عشرة دقيقة· وقالت

له بحزم انه يجب ألا يقلق بشأن دوغلاس· وان كل شيء أصبح على ما يرام الآن، وانها متأكدة انه بعد تورطه مع بول لن يعود ثانية الى مائدة القمار· أجل، بول كان مصدر ارهاب، كلا، بالطبع، فهو لم يرهبها هي··· يالها من فكرة!

وأطلقت ضحكة، واستطردت تقول بسرعة انها شاهدت بعض الافلام عن اليونان، عرضها بول في البيت، وانها تبدو بكل تأكيد بلادا اثرية رائعة·

وقال عمها بصوت متهدج:

"سأفتقدك يادومني· هل أنت متأكدة أنك سعيدة مع بول"؟

ونظرت الى الجدار الذي يعلو منضدة الهاتف، وقاومت مخاوفها من الحياة التي تنتظرها مع رجل لا يحبها وقالت تطمئن عمها:

"يستطيع أن يكون لطيفا، وهو رجل وحيد للغاية"·

وكان بول في تلك اللحظة يهبط السلم، وفهمت من وجهه انه حان الوقت لتودع عمها· ولم تعد تخشى أن يدرك من صوتها انها غير قادرة على حبس دموعها وهي تقول له:

"وداعا··· وداعا··· سأكتب اليك بمجرد وصولي الى أثينا"·

وتردد صدى الكلمات في ذهنها وهي تخرج لركوب سيارة الأجرة مع ليتا ويانيس، ولحق بهم بول بعدما أحكم اغلاق الفيلا· وانطلقت بهم السيارة الى المطار· كانوا سيطيرون الى باريس، ومن هناك يأخذون طائرة أخرى الى أثينا·

بعد الاجراءات المربكة التي تمت بعد وصولهم الى مطار أثينا، ركبوا عربة الى فندق "هيلينيك" الكلاسيكي الذي كان ذا شرفة واسعة تستخدم مطعما ومقاصف للرقص، ومن نوافذ جناحهما كان "الأكروبوليس" يظهر على ضوء النجوم، وذكر بول أن سحره التاريخي يتجلى في الليل ومع الفجر·

وكان يانيس وزوجته قد أعفيا من واجباتهما، واخذا اجازة، وكان عليهما ان يتوجها بعد ثلاثة أسابيع الى

جزيرة "أنديلوس" قبيل وصول بول وعروسه اليها بأسبوع.

وشعرت دومني بالتوتر لوجودها وحدها مع بول: عروس غريبة في أرض غريبة. ولكن لم يكن في المستطاع تجنب ذلك، وكان عليها أن تعتاد زوجها عاجلا او آجلا.

كانت متعبة بعد الرحلة الطويلة، لذلك تناولت الطعام ذلك المساء مع بول في حجرة الاستقبال في جناحهما، وعندما تمنى لها نوما هنيئاً انحنى برأسه الداكن، وطبع قبلة على وجنتها، وفي الحال استدار مبتعدا وهو يبدو فاترا. الا انها لم تستطع ان تتجاهل الرجفة التي اكتسحتها.

وتسللت أشعة شمس اليونان الذهبية من خلال نوافذ غرفتها صباح اليوم التالي، وايقظتها من نومها.

وتناولا افطارا مكونا من عصير الفواكه، والكريما والعسل وفطائر السمسم. بعد ذلك أكلا التين العنبري اللون، وشربا القهوة اليونانية. وهمست دومني:

"انها لذيذة".

واستقرت عيناها في سرور على أزهار الليمون وسط أوراقها اللامعة التي كانت تحيط بسور الشرفة.

وقال لها بول محذرا:

"لا تشربي رواسب القهوة".

تلاعبت بالفنجان الصغير وهي تفكر بان مرارة الرواسب شأن اشياء أخرى كثيرة تبدو حلوة ثم تترك مرارة في نهايتها.

وسأل بول وهو يعتدل في مقعده ويشعل سيكارة:

"ماذا سنفعل هذا الصباح"؟

لم تستطع ان تتجنب النظر اليه. كان شعره بريق أخاذ تحت أشعة الشمس، وكان يرتدي قميصا قصير الأكمام، وبنطلونا ضيقا. وحلقات الدخان تتصاعد أمام عينيه الذهبيتين، فتضيقان، وتشع نظرة نمر مفترس:

وقالت دومني:

"جولة لمشاهدة الآثار ستكون شيئا لطيفا".

"اذن سآخذك الى بلاكا المنطقة القديمة في أثينا".

وانفرجت شفتاه عن ابتسامة كشفت بياض أسنانه، واستطرد يقول:

"البسي صندلا لأن الطرق الحجرية قديمة ومتآكلة. وبعد أن تلقي نظرة على المحلات التجارية، ربما تريدين مشاهدة الأكروبوليس".

"بكل تأكيد".

ولمحت قلادة يونانية تلمع خلال فتحة قميصه ذكرتها هذه القلادة الملتصقة بصدره بما كانت تحاول جاهدة ان تنساه، احساسها بها في الظلام... تلك الليلة الاولى...

ونهضت بسرعة، وقالت:

"يجب أن اذهب لامشط شعري، واضع احمر الشفاه".

واستدارت وذهبت الى غرفتها. وتجنبت النظر في عينيها في المرآة، وارتجفت يدها وهي تضع أحمر الشفاه، وكان عليها أن تمسحه، وأن تعيد طلاء شفتيها باللون الوردي.

وحدقت دومني في فمها ذي الشفة العليا الرقيقة الحساسة والشفة السفلى السخية الممتلئة. وأحست انه تمزق عندما استسلم بصمت لفمه الذي قال لها بفتور:

"احتفظي بحبك... هل طلبته منك مرة"؟

وأشاحت بوجهها بسرعة، ووضعت الصندل في قدميها، ثم أخذت حقيبة يدها، وألقت نظرة أخيرة على صورتها. كانت رقيقة ورشيقة. ولم تتزين الا بخاتمين: الدبلة الذهبية البسيطة. والخاتم الفيروزي الذي كانت زرقته تضاهي زرقة عينيها.

دومني ستيفانوس: ابتسمت للفكرة وان ارتجفت لغرابة الاسم. دومني دان ذهبت الى الابد، تاركة فقط

الكيان والوجه اللذين دفعا رجلا الى طرق ملتوية ليفوز بامتلاكهما.. وابتعدت عن المرأة، ولحقت بزوجها لزيارة بلاكا والاكروبوليس:

وكانت شوارع البلاكا مهملة وضيقة، ومليئة بمحلات مفتحة الابواب كالسوق وبيوت ذات شرفات خشبية...

وشعرت دومني بأصابع بول الدافئة على مرفقها وهو يشير الى الثوم والفلفل الأسود في واجهة محل بقالة، والاحذية الشعبية القديمة خارج محل أحذية، سلال الفاكهة الجميلة، وكان هناك بائع اسفنج يحمل مجموعة أشبه بالبالونات الملونة، وبائع بطيخ يجر عربة خشبية "كارو". واشترى بول شرائح من البطيخ، وبعدما أكلت دومني قطعتها تلاشى احمر الشفاه مع العصير، وبدت كمراهقة في اجازة وهي تحملق حولها في الناس الذين امتلأت بهم الشوارع الصاخبة الزاهية.

وضحكت من فوق كتفها لبول وقالت:

"انه مثل زقاق اعرفه في بلادنا، بائع الاسفنج سيختفي اذا دهمته الرياح".

وابتسم، واقترب منها قليلا، وقال:

"هل أنت سعيدة"؟

وأومأت برأسها. ذلك أن البلاكا كانت ذات سحر لا يقاوم. وأمسك بول بأصابعها المبللة بماء البطيخ، وصعدا معا السلالم غير المستوية، ومرا أمام المقاهي القديمة حيث جلس الشيوخ أمام أكواب القهوة التركية. يمضغون الكلمات اليونانية، فيبدون كما لو كانوا يتشاجرون.

ورأت دومني اليونانيات ذوات الأجسام الضخمة بصحبة بناتهن الرشيقات. ولاحظت أن شبانا عديدين كانوا على الكثير من الوسامة بشنبهم الاسود وكثيرون بالملابس العسكرية. وأخبرها بول ان الخدمة العسكرية اجبارية. وعندما نظرت اليه لمحت ظلالا تتحرك على صفحة وجهه،

ثم نظر جانبا الى أحد المحلات، ولم تستطع أن ترى عينيه وكانت نظارته الشمسية في جيب قميصه. لأنه لم يكن بحاجة اليها في ذلك المكان حيث اختفت الشمس وراء سطوح المنازل.

ووقف أمام واجهة محل صغير يعرض بعض المصنوعات اليدوية الوطنية. احذية مطرزة، وحقائب يد، وشرائط حريرية من الخرز المانع للقلق وكذلك من المشابك والاقراط. وقال بول وهو ينحني فوق المعروضات:

"دعيني أشتري لك تذكارا لزيارتك بلاكا".

وخرج من المحل رجل معمم، ووقف يرقب بول وهو ينتقي قرطا على شكل قلب. وسأل الرجل عن الثمن، ودفعه له، ثم جذب دومني، وعلق القلبين الزرقاوين الصغيرين في اذنيها. وهتفت:

"القرط رائع يابول، يجعلني أشعر كما كنت من جواري الحريم".

ولكن بول لم يبتسم. وامسك بها فجأة من خصرها، ورفع ذقنها بيده الأخرى وبدا فمه في مثل عنف ذراعه. وحدق بعينيه الذهبيتين في عينيها، وقال في صوت خافت، أجش.

"هل هذا ما تشعرين به؟ مثل جواري الحريم. اللواتي كن يشترين بالمجوهرات"؟

ونظرت اليه مغلوبة على أمرها. وقالت مرتبكة:

"لم أقصد ذلك، كنت أمزح".

"اللاشعور أحيانا يدفعنا الى نطق كلمات نعتقد أننا لم نكن نعنيها".

ثم حررها من قبضته، وأكملا مسيرتهما الى الأكروبولس في صمت.. وشعرت دومني بالرغبة في البكاء... جواري الحريم! انزلقت الكلمات من فمها لتفسد عليه بهجته بشراء هدية صغيرة لها.

ووقفت دومني وهي تشعر بضآلتها وسط الأعمدة الشامخة تنظر اعلى فأعلى وتستشعر تناسق هذه الأعمدة وعظمتها وهي أشبه بالاصابع تشير نحو السماء.

وأخذها بول الى دهليز العذارى حيث صوّب السياح آلات التصوير، وأخذوا يلمسون التماثيل التي بدت كأنها تتحرك - وأراها شجرة الزيتون القديمة التي ما زالت موجودة، رمزا للأمل.

وتسمرت نظراتها عليه وهو واقف على السلم الكبير وقد أغرقته الشمس بأشعتها الذهبية. ولمحت من جديد على وجهه ذلك التعبير، كما لو كانت ذكرى متوحشة داهمته وهو يتأمل عاصمة اليونان القديمة.

وكان بول يحمل معه آلة تصوير، فالتقط لها عدة صور وهي متكئة على عمود إستر. وقال في ابتسامة ساخرة.

"ستتوقع كارا ان نحمل معنا مجموعة من صور شهر العسل".

"اذن لابد أن نأخذ صورا معاً، لنسعد كارا".

وبمساعدة أحد السياح الامريكيين وقفا جنبا الى جنب، وبدأ هو يستعد لالتقاط عدة صور لهما. وقال الامريكي وهو يداعبهما بلهجته المرحة:

"اعرف أنكم معشر اليونانيين تتحفظون أمام الآخرين، ولكن وضع ذراعك حول السيدة سيبدو لطيفا".

ورمق بول دومني بنظرة متهكمة ثم أحاط خصرها الدقيق بذراعه، وجذبها الى جانبه. وكانت ابتسامتها أمام آلة التصوير متوترة كجسمها. وشعرت بأصابعه تغوص في خصرها وتؤلمها. ثم انتهى التصوير. وتركها متجها الى السائح الأمريكي الذي قال له:

"ستظهر صور زوجتك رائعة، تماما مثل واحدة من بنات الاغريق".

وابتسم بول للسائح شاكرا وهو يسترد آلة التصوير،

فرد الامريكي العفو باليونانية وهو مغتبط بنفسه لانه تمكن من معرفة هذا القدر من اليونانية.

ثم ألقى بول نظرة الى ساعة معصمه وقال لزوجته:

"لابد أنك جائعة، هل نأكل في احد المطاعم هنا، أم تفضلين أن نعود الى الفندق"؟

وجزعت من فكرة العودة الى الفندق، ليس بعد! المطعم قد يكون صاخبا، مكتظا بالغرباء الذين تستطيع أن تنسى بينهم نفسها ساعة أخرى على الاقل. وقالت بسرعة:

"احب أن آكل هنا في أحد المطاعم طعاما يونانيا".

وهبطا السلم المغطى بالحشائش، وتنبهت الى ان الناس ينظرون اليهما. ينظرون الى اليوناني الطويل الوسيم، وعروسه الانكليزية. تماما كما حدث في كورنوال ذلك اليوم حين ذهبا الى لوو لاسترجاع الشيكات. ولكن في ذلك اليوم شعرت دومني بفوران جميل يسري في شرايينها، اما الآن. فالفوران ما زال موجودا لكنه لم يعد جميلا.

٥ - نافذة القلب

كانا في طريقهما الى مطعم تقدم فيه اللحوم المشوية الى جانب السمك، عندما نادى أحدهم بول، ووجدا نفسيهما محاطين بعدد من الاشخاص المرحين: زميلان من زملاء بول، بصحبة زوجتيهما . وكانتا سيدتين باهرتي الاناقة، ترتديان الملابس الحريرية، وتضعان على رأسيهما قبعتين بورود، وتمسكان باصابع مكسوة بالقفازات، حقيبتين غاليتين، تفحصتا بعيون سوداء ملابس دومني العادية، ولاح أنهما صدمتا لأن زوجة رجل أعمال هام تبدو في ملابس بسيطة أشبه بملابس السائحات .

لكن الزوجين في الجانب الآخر، ابتسما لدومني في سرور واضح، والحا أن تنضم هي وبول الى جماعتهم لتناول طعام الغداء .

واشار بول الى المطعم وراء صاحبه مباشرة وسأله بالانكليزية لان دومني لم تكن تفهم اليونانية جيدا بعد:

"هل تنوي تناول الغداء هنا ياكوستس"؟

وأجاب كوستس في الحال بانكليزية ذات لكنة، ان هذا المكان مشهور بتقديم الأطعمة اليونانية، وأنهم سيتناولون فيه غذاءهم . وأومأ الى زوجته مؤكداً انتصار رغبته ذلك

أنها كانت تتمنى الذهاب الى مكان أكثر فخامة . والطعام فيه أجمل منظرا، مع انه بلا نكهة .

وقالت انجيليكا لدومني وهما تتبعان الرجال داخل المطعم:

"استغرق كوستس وقتا طويلا حتى بات مرموقاً. سنوات طويلة ارتديت بصبر الملابس الرخيصة . والآن اذ أصبحت أملك الملابس الأنيقة التي يسعدني الظهور بها، يأخذني للطعام في مكان شعبي متواضع، تفهمين طبعا، اليوناني يجب أن يكون السيد".

وابتسمت دومني، فهمت جيدا شيئا واحدا فقط: أن بول يتوقع منها أن تظهر أمام أصحابه العروس المشرقة . وكان من الصعب عليها أن تعترف لنفسها أنها لا تجرؤ على معارضة رغباته . كانت له كبرياؤه . وما هو كبرياؤها بالمقارنة؟

وتتبعته بعينيها . وكان المطعم مكانا يمكن أن يأسر دومني في أي وقت آخر، بصحبة أناس أقل فضولا وصخبا . المقاعد حول المائدة المتواضعة من الخيزران والجدران بيضاء تتدلى منها آلات الموسيقى الفولكلورية الشبيهة بالقرع العسلي . ومن كل الأرجاء ارتفعت أصوات المناقشات باليونانية وسط ضباب الشواء .

واصطحب بول دومني لتختار لنفسها الحساء والخضروات واللحم . واختارت السيدتان الاخريان عصافير مشوية . وفزعت دومني لذلك في سرها . ما كانت لتأكل هذه الطيور الصغيرة لو أن بول أمرها بذلك . وهو لم يفعل بطبيعة الحال، ولمحت ابتسامة على شفتيه عندما طلبت شرائح من اللحم المشوي، ورغبت أيضا ببعض البطاطس المحمرة، وفي الحال طلب بول ان تكون طازجة، وعندما عادا الى المائدة، كان كوستس يطلب شرابا يونانيا أبيض، وقال بول لدومني:

"لن يعجبك هذا الشراب".

وطلب مشروبا آخر مع السمك المدخن الذي قررا هو

ودومني أن يتناولاه بدلا من الحساء. وانهمكت انجيليكا وميرها في الطعام بشهية، وابتسم كوستس وهو يرفع كأسه لدومني عبر المائدة. وقال كلمة باليونانية فهمتها في الحال. كانت تعني "كوني سعيدة" وابتسمت لليوناني اللطيف وتمنت لو لم تنطق عيناها بان السعادة لم تعد أكثر من مجرد كلمة بالنسبة اليها. ذكرى لحريتها في الاستمتاع بحياتها في سلام في مدينتها فردان. بحماية عمها الطيب.

ثم خفق قلبها بعنف حينما سألتها انجيليكا بصوت مرتفع سمعه كل الجالسين حول المائدة عن عدد الأطفال الذين تتمنى أن ترزق بهم. وحدقت دومني في صحن مملوء بالزيتون الاسود ذي اللمعة البنفسجية. أطفال من بول!

واختلست نحوه نظرة جانبية قبل أن تواجه انجيليكا بابتسامة. وتمتم باجابة مبهمة. وتبادلت اليونانيتان ابتسامات المعرفة. اذ اعتقدتا أنها خجول لأنها انكليزية، وسرعان ما حولا دفة الحديث الى مسرحيات الموسم.

وقالت ميرها موجهة كلامها لدومني:

"يجب أن تقنعي بول بأن يأخذك الى المسرح. وأحذرك لأن المقاعد من حجارة، ولكنني آخذ معي دائما وسادة. في الموسم الفائت شاهدنا مسرحية "اليكترا" وكانت رائعة".

وتنفست دومني الصعداء اذ استطاعت أن تتفرغ لطعامها وهي تصغي الى وصف ميرها للمسرحية. وبينما كانت تأكل البوظة اللذيذة، لاحظت الابتسامة التي تعلقت بطرف شفتي بول وهو جالس يستمتع باحتساء القهوة التركية، وتدخين السيكارة الرفيع. لعبت دورها بما يرضيه. وارتباكها بشأن الانجاب، فسر على أنه بسبب الحياء، وبدون شك أنه سر أيضا لتجاهلها نظرات الاعجاب بشعرها الذهبي ولون بشرتها الأبيض، من الرجال الجالسين على موائد قريبة.

وعندما انصرف بول ودومني للعودة الى فندقهما،

كانا يحملان معهما دعوة الى بيت ميرها يوم الجمعة، وأخرى الى بيت انجيليكا مساء الأحد.

وقال لها بول في المصعد المتجه الى جناحهما في فندق هيلينيك:

"أحبوك! وقال لي كوستس أنه لم ير أبدا من قبل عينين كعينيك في مثل زرقة بحر اليونان".

ورفعت دومني هاتين العينين الزرقاوين الى وجه زوجها الاسمر، وردت بأدب أنها هي ايضا أحبت أصدقاءه.

وفجأة أمسك بها من كتفيها. فجعلها تحس بدفء يديه وعنفهما من خلال قماش البلوزة. وقال:

"لا تتحفظي معي،نادني بالقرصان اليوناني، اصفعي وجهي، ولكن لا تكوني دائما مؤدبة".

قالت بجفاء:

"سأتعلم، امهلني يابول، امنحني وقتا".

قال معقبا:

"الوقت طريقة للهرب".

ووصلا الى باب جناحهما، ودفع المفتاح في القفل بشيء من العنف. وخفق قلبها، اذ أدركت في تلك اللحظة أنه لن يظل بعيدا عنها مدة طويلة. كانت له رغبات الرجل القوي العاطفي، وقد تعلمت أنه يمكن أن يكون بلا رحمة.

وفي اليوم التالي بدا جناحهما أشبه بمحل ازهار عندما انتشر خبر وجود بول ستيفانوس في أثينا، وأنه جاء معه بعروس انكليزية. فاستمر وصول سلال الازهار، وعلب الفواكه والحلوى. وايضا هدايا العرس للسيدة ستيفانوس الشابة. ولم تكن دومني سوى انسانة. لذلك لم تستطع أن تقاوم حب الازهار، وتذوق الحلوى والفستق والعنب الذهبي ولكنها دهشت للهدايا الأخرى من زجاجيات الشراب، والملاعق الصغيرة الفضية، والاطباق المزخرفة، وشرح لها بول

تقاليد اليونانين في الترحيب بضيوفهم بتقديم الحلوى او المنعشات في هذه الأواني.

وابتسمت دومني واستدارت في الحال لتدفن وجهها في باقة من زهور البنفسج وقالت:

"أحب البنفسج".

وصمت بول، واتجه ناحية باب الشرفة ليشعل سيكارا. واختلست نظرة نحو كتفيه العريضين، ورأسه الداكن، وانبأها شعور خفي بأن أزهار البنفسج مهداة منه. واحست بضرورة شكره، لكن الكلمات لم تسعفها. كيف عرف انها أزهارها المفضلة؟ وهي لم تتحدث معه أبدا عن مثل هذه الاشياء، وهو لم يرها أبدا في غابات فردان منحنية فوق حوض البنفسج في الربيع لكنه من يدري...

وفي الليلة السابقة لرحيلهما الى إنديلوس حضرا حفلة راقصة في يخت في ميناء أثينا. كان المركب الكبير مزينا بالأنوار الملونة، وكانت حلبة الرقص على السطح، تحت النجوم وفرقة موسيقية صغيرة تعزف الألحان.

ارتدت دومني ذلك المساء ثوبا من الشيفون اليوناني ذي الزرقة الباهتة المبطن بالحرير. وعقصت شعرها الى أعلى وعلقت بالشيتيون العسلي الناعم أزهار البنفسج الرقيقة. وقبل أن تخرج مع بول الى الحفلة، لف حول ذراعها أسوارة فضية ذات مشبك من حجر ثمين نادر لونه بنفسجي. وتحسست الاسوارة بأصابعها. كانت أشبه بقيد العبودية.

أما بول فقال:

"ازددت جمالا في اليونان، شمسنا أدفأت بشرتك وجعلتها بلون العسل، اخبريني، الا أستحق قبلة على هديتي"؟

ورفعت وجهها أشبه بفتاة صغيرة مطيعة، وضحك هو بنعومة وقال مازحا:

"انك تخافين اليوناني عندما يقدم الهدايا اليس كذلك؟

ترى ما الذي أخفيه"؟

ونظرت في عينيه النحاسيتين، فالعينان كما يقال نافذة القلب. وكان كل ما رأته ابتسامة غامضة، وانعكاس صورتها في مقلتيه، كانت له عينان نفاذتان. ومثل كل شيء آخر فيه، كانتا جميلتين ومتوحشتين. ولو لم يكن الزوج الذي كانت تخافه، لكان حتما أن تعجب به في سترة السهرة البيضاء التي ارتداها فوق قميص حريري أبيض مع رباط عنق داكن، هكذا فكرت دومني، وهما يخرجان معا من جناحهما كأي زوجين سعيدين في طريقهما الى سهرة مرحة.

وكانت دومني تحب الرقص. تعلمته في المدرسة الداخلية وكانت تخرج بصحبة باري للرقص مرات عدة. طرأ باري على بالها حينما شعرت بضغط يد بول وهما يرقصان في صمت على ظهر اليخت الساحر. كانت تتبادل مع باري طوال الوقت الهمسات والضحكات، وهما يرقصان في نادي الشاطيء حيث كانا يلتقيان عندما كانت تتسل من المدرسة بعد الظلام بمساعدة زميلة لها وكان ذلك سرهما الساحر "الرومانتيكي" منذ البداية.

"انك تجيدين الرقص لم تكن لدي فكرة أنكم تقيمون حفلات كثيرة في فردان".

"لم تكن لدينا الأموال الكافية لذلك. تعلمت في المدرسة الداخلية".

"ولكنك تبدين معتادة على مراقصة رجل أكثر من مراقصة فتاة. وقد لاحظت ذلك من قبل".

وكانت في لهجته رنة فضول. وخفق قلبها خفقة لا يستطيع غيره أن يحركها. كأنه تيار كهربائي يسري من كيانه الى كيانها. وقالت:

"نسيت أن لي ابن عم. فعندما كان دوغلاس يعود الى البيت، كنا كثيرا ما نرقص في الصالة على أنغام الفرامفون القديم".

"آه·· دوغلاس·· أعتقد أنك كنت تهتمين كثيرا بهذا الشاب".

وسكتت الموسيقى، ووضع أحدهم في يدها كأسا من الشراب اليوناني، وخلال الساعات التالية رقصت دومني مع رجال آخرين، بينما أختفى بول. وقال لها أمريكي شاب:

"بعض اليونانيين يلعبون الورق في احدى الحجرات في الداخل. انهم يحبون لعب الورق".

كان ذهنها شاردا وهي تفكر في ابن عمها. وتتابعت أفكارها: هل حقا يعتقد بول أنها تزوجته لاهتمامها بدوغلاس بأكثر من مجرد علاقة القرابة؟ يا للغرابة. ويا للحذاقة المخيفة من جانبه لظنه أنها لابد أن تكون رقصت كثيرا مع رجل كانت تهتم به!

كانت تهتم به! هل يعني ذلك أن حب باري لم يترك قلبها أبدا؟ ياله من حب يائس وهي التي لم تكن لديها أية فكرة عن مكانه لكنها تعرف أنهما لو التقيا من جديد، فلا بد وأن يكونا كغريبين لانها لم تعد دومني دان.

وضاقت دومني بالرقص ولمحت سلما ضيقا، سلكته لتجد نفسها فوق سطح آخر لليخت. وقفت وحيدة أمام السور. وداعبت نسمة شعرها ووجنتيها. وانعكس ضؤ القمر فوق سطح البحر، وألقى ظلاله على ساريات المراكب الأخرى الراسية. وقلوعها وأحست أن في صوت هدير المياه حزنا له صدى في أعماقها. ورفعت عينيها نحو النجوم. وتساءلت عن مستقبلها مع بول وارتجفت عندما لمحت نيزكا يفر في الفضاء، بينما ارتفع في هذه اللحظة صوت عميق يقول:

"تبدين بعيدة مثل هذه النجوم يادومني".

أقبل بول في خطواته الصامتة، ووقف وراءها ولم تلتفت دومني وأحست بانفاسه تداعب شعرها، بينما استقرت يداه في قوة ودفء على كتفيها. وظلت في مكانها بلا حراك

قلبها فقط ينبض وشفتها السفلى تهتز في عصبية.

وهمس بول:

"انك تحبين الاستمتاع بالوحدة بين الحين والآخر. أليس كذلك"؟

وأومأت برأسها. فعاد يقول بصوت هادىء.

"ستحبين الجزيرة يادومني، انها مكان لمن يعشقون الحرية والطبيعة البكر. اصغي الى البحر، انه يترنم بأغنية عذبة".

سألته:

"هل تسمع البحر من بيتك"؟

"من بيتنا يادومني".

ورفع يديه عنها، واستند على سور السطح وعندما نظرت اليه كانت عيناه تبرقان وتتحركان كعيني قطة في الليل. وكان شعره مجعدا. كان يشرب ويلعب الورق. وأحست بتقلص عصبي في حلقها لما لمحته فيه من الاستهتار. وقال بسخرية: لماذا تخافين مني ياصغيرتي الى هذا الحد"؟

أجابته:

"أليس من الطبيعي أن نخاف مالا نفهم"؟

وافتر ثغره عن ابتسامة وهو يقول:

"صحيح اننا معشر اليونانيين لا يسهل فهمنا أبدا. أغلب ما نحس به غامض. لكنه في أي حال اما النار في البركان او الجليد تحت البحر ولكن الشيء نفسه يمكن أن يقال عن الانكليز. أنت يادومني وأنت واقفة هنا هل تعتقدين أني لا أجدك لغزا؟ دومني الفتاة ذات الاسم النادر الجميل الذي يناسب شخصيتها. دومني... التي ستحصل على انتقامها عندما أبرهن أني شيطان اذ آخذ ما لن تعطيني اياه"!

ورفع رأسه الى الوراء، وضحك في وجه القمر. وهمت بأن تبتعد عنه، ولكنه بسرعة ودهاء مثل النمر، قيد معصميها بيد واحدة، ورفع وجهها باليد الأخرى، وقال وعيناه تشعان

بريقا ذهبيا:
"يا عاصفتي الصغيرة، أجل، ساحصل على ما أريد" وهرولت بعيدا عنه. وهبطت السلم لتعود وسط الساهرين.

جلسا في العربة التي أقلتهما الى الفندق متباعدين. لم تنظر اليه في المصعد. وهي واقفة ببرود في ثوبها اليوناني، وقد تجمدت عيناها كحجر الفيروز في يدها اليسرى. تبادلا في غرفة الاستقبال تحية المساء، ثم دخلت دومني غرفتها، وأغلقت الباب بصوت مسموع. وهمت بأن تغلقه بالمفتاح، لكنها تراجعت. فاغلاق الباب سيكون اعلانا صريحا عن الخوف الذي في قلبها. وهي لا تريد أن تمنح بول هذه السعادة.

كان ذهن دومني مشغولا. فاستسلمت لنوم قلق مليء بالأحلام المضطربة غير أنها لم تستطع أن تتبين ما دارت حوله أحلامها، ونهضت فجأة لتجد وجهها غارقا في الدموع. وجلست في سريرها تتحسس دموعها. حينئذ لمحت من خلال نوافذ غرفة نومها ألسنة لهب أحمر ترتفع وتسارعت خفقات قلبها، ورفعت الأغطية عنها، وهرولت لترى مصدر هذا اللهب.

وفتحت باب الشرفة، ووقفت في الخارج بقميص نومها، تحدق في اتجاه مصدر اللهب. كانت منبعثة من الميناء. وسمعت أصوات نفير عربات الاطفاء لكنها لم تتنبه الى صوت بابها وهو يفتح ليأتي بول ويلحق بها الى الشرفة.

وسألته في قلق:
"هل يمكن أن تكون النار مشتعلة في يخت "الساحرة الفضية"؟ يا للخسارة اذا كانت هي. انه مركب جميل! أرجو أن يكون أصحابك قد خرجوا بأمان".

واقترب من سور الشرفة، وأطال النظر ناحية الميناء، كما لو كان يقدر مكان وجود يخت أصحابه بالضبط. وصاح:
"كلا. انها ليست "الساحرة الفضية". فهي راسية في مكان

أبعد. اللهب شديد جدا فالأغلب أن تكون هذه سفينة شحن".

كانت ألسنة اللهب تلقي ظلالها الحمراء عليهما وبدا وهو مقبل على دومني في بيجامته السوداء الحريرية. بقامته الطويلة أشبه بالشيطان وتمتم شيئا باليونانية، حينما كانت هي تتراجع في اتجاه غرفتها وألقت صرخة صغيرة عندما تبعها، وأغلق باب الشرفة وقالت وهي كارهة لرجفة صوتها:
"أنا.. أنا سعيدة لأن النار ليست في "الساحرة الفضية"".

ولم يرد. وأرغمت نفسها على أن تنظر اليه. واقفا يتأملها في قميص نومها فجعلتها نظراته تحس كما لو كانت عارية وقال:
"اتهمتني ذات مرة أنني اشتريتك يادومني. هل تعتقدين ذلك حقا"؟

وابتلعت ريقها بصعوبة. وأحست اضطراب قلبها. وقالت بانفعال كأن شيطانا يدفعها الى ذلك:
"هل تعتقد يابول أن هذا هو الوقت لتجمع الفوائد عن تمزيقك تلك الشيكات"؟

فالتقط أنفاسه، ثم تحرك خطوة مقتربا وأطلق ضحكة متوحشة وقال:
"نعم ياعزيزتي، الوقت حان لأن تكفي عن لعب دور الزهرة المنكمشة. ضقت ذرعا بذلك، خاصة وانا أعلم ان لجمالك البارد وكبريائك وجها آخر".

صاحت برغم الذعر المستبد بها:
"تريد أن تذل كبريائي، أليس هذا صحيحا يابول"؟

وتسمرت في مكانها، وبحركة سريعة خاطفة ماكرة، أخذها بين ذراعيه وقاومت بعنف لتتخلص منه وانطلقت تردد:
"دعني يابول".

ووصلت أصابعها الى مكان الندبة والى شعره المجعد.. وعادت تقول:

"أنا، أنا سأكرهك"·

قال ونظرة تملك في عينيه:

"ألم تكرهيني منذ البداية يا عاصفتي الصغيرة"؟

وحملها بين ذراعيه وأغلق الباب خلفهما· كانت كتفاه العريضتان أشبه بجناحين يحتويانها وهو يضعها فوق السرير·

واستيقظت دومني قبيل الفجر وبحرص شديد انسحبت وفزعت عندما تمتم شيئا في نومه، واهتز قليلا، لكنه عاد فاستغرق في النوم، وابتعدت دومني كما لو كانت تهرب من نمر·

وعندما وصلت الى غرفتها وضعت ازارها فوق كتفيها، وجلست بجانب النافذة· تراقب أصابع الفجر الوردية· كان المنظر رائعا لكنها شاهدته بحسرة·

٦ - البيت وقمة الصخرة

لم تنس دومني أبدا لحظة وقع بصرها على أنديلوس، التي كانا في طريقهما اليها في مركب بول، مع بحار شاب من سكان الجزيرة يمسك بدفة القيادة، وآخر يقوم على خدمتهما·

ظهرت الجزيرة فجأة وسط البحر الأيوني الأزرق· واضحة تماما وسط أضواء بلاد اليونان الصافية· وأمسكت دومني السور بيديها حيث وقفت· كانت انديلوس محتلة في الماضي من الايطاليين والرومان·

وكان اليونانيان يتحركان بسرعة لتنفيذ أوامر بول· ولا شك أن كل سكان الجزيرة يحترمونه، بل ويحبونه لأنه بنى لهم مستشفى، ومدرسة لابنائهم فيها حمام سباحة وملعب ومكتبة· ولم يكن بول هو الذي أخبرها بذلك لكن انجيليكا وميرها كانتا مصدر هذه المعلومات·

ووقف بول بجانبها متكئا على السور، قميصه الأبيض مفتوح، ونظارة الشمس تخفي عينيه، وشعره الأسود ازدادت تجعداته بتأثير هواء البحر لكن دومني كانت تشعر بهزة في أعصابها فما تزال تحت تأثير ما حدث منذ ثلاث ليال· فأثناء تلك الأيام في البحر، احتاجت لكل شجاعتها لتتعامل معه بصورة طبيعية·

وقال بول:
"اننا نقترب من الجزيرة. هل أنت مشتاقة لرؤية بيتك الجديد"؟
كان يعرف جيدا ما في قلبها. انه الشوق للحرية شوق طيور البحر وهي تنطلق مع الرياح.
وأجابت:
"أتخيل بيتك فوق قمة "صخرة النسر" بيتا ذا شأن. هل عاشت فيه أسرتك منذ سنين عديدة"؟
ونفث بول دخان سيكاره وقال:
"بناه جدي. هو وأخوه "لوكاس" مؤسسا شركة خطوط ستيفانوس للملاحة. وأثناء حركة التمرد تعرض العمل لهزات خطيرة، شأن كل شيء في اليونان، لكننا بمرور الوقت تغلبنا على العقبات، وسارت الأمور على ما يرام".
وظل صامتا دقيقة أو أكثر، وبطرف عينيها لمحته يتطلع نحو الجزيرة المقتربة عابسا. ثم استطرد:
"البيت الذي سآخذك اليه، ليست له جذور عميقة في الماضي مثل فردان. ولكن يمكنك أن تقولي عنه أنه الرمز الشامخ للانتصار على الطبيعة الوعرة. ان ارض اليونان غالبا ما تكون قاحلة، والحياة صعبة بالنسبة للكثيرين من ابناء وطني".
قالت لمجرد الثرثرة:
"ولكن عشيرة ستيفانوس حققت النصر".
وأحست بنظرته الفولاذية وهو يقول:
"حققناه بالعمل الجاد. لم يحدث أن تورط أحدنا في السرقة".
وبنغمة ذات مغزى قالت وهي تشعر بشيء من الزهو لقدرتها على ان تلقي سهامها مثله:
"لا أحد ابدا يابول"؟
وتأملت أمواج المحيط المتلاطمة بلا نهاية، تحت

أشعة الشمس الذهبية كأنها الألم والفرح ترتفع ثم تهوي لتبدأ من جديد.
وهمس زوجها بجانبها:
"البحر يحوي كل شيء. الحياة نفسها. تجمع الصخب والحيوية والسلام".
قالت معقبة:
"البحر قاس، انه يأخذ مثلما يعطي".
والقى ببقايا السيكار في البحر وقال:
"القسوة موجودة في كل شيء. حتى في الفرح. وعلينا أن نتقبل ذلك".
وعاد يقول:
"أعرف أنه من العسير عليك يا أسيرتي الحالمة أن تواجهي حقيقة أن الساعات التي أمضيتها معي تلك الليلة لم تكن بغيضة تماما".
حاولت التخلص منه وهي تقول:
"دعنا لا نتكلم في هذا الأمر".
لكنه تمسك بأسرها وقال وهو يهزها:
"أنا ألح في سماع ردك".
ورفعت رأسها وواجهته بعينين تشعان بريقا أزرق وقالت:
"هذه الساعات، كانت كما اردتها أنت، أجل يابول. ولكن قلبي ملكي".
قال وعيناه في عينيها:
"لعلك تعتقدين أن زواجنا علاقة مستبدة، حسنا، دعيني أخبرك يادومني أنك اذا عشت مع رجل تحبينه، فستكتشفين أن هناك وقتا للصراع، ووقتا للتقارب ووقتا للتباعد. الحب والكراهية ليسا غريبين أحدهما عن الآخر، ان البسالة وكبح الجماح لا وجود لهما الا في الكتب الخيالية".
قالت:

"أنا أتوقع البسالة يابول، انه خيال المراهقة بعينها.لقد لقيت منك كل ما توقعت عندما أقسمت على طاعتك".

قال بلهجة تحذير:

"وتذكري أن الشرف كان ضمن ما أقسمت عليه".

قالت والرياح تداعب خصلات شعرها، وقد امتلأت عيناها بزرقة سماء اليونان ومحيطها:

"من المؤسف أنك أنت لم تتذكر ذلك يابول".

واهتز ركن فم بول بعصبية وهو يحدق فيها. وتحركت عيناه فوق بلوزتها المطرزة المستوردة من جزيرة كريت والتي كانت الرياح تداعبها وكان شعرها المتطاير يحيط بوجهها، ويضفي على وجنتيها ضياء ورديا.

وقال بول بتهكم:

"أهل أنديلوس سيظنون أني أسعد رجل على الأرض".

قالت بسرعة:

"أتمنى لو كنت امرأة عادية".

وأطلق ضحكة عميقة وقال:

"تتمنين ذلك حقا؟ سواء عادية، او جميلة كنت ستظلين دومني".

وكانت تسمعه، ولكن اهتمامها كله كان مركزا على الحركة التي لاحظتها بجانب المركب. وقالت مشيرة نحو حركة المياه:

"هل يوجد سمك القرش في مياه اليونان"؟

وانحنى ليتابع الحركات التي كانت تموج ثم تدور وتقفز وذراعه ملتف حول خصرها.

"انه درفيل".

للمرة الأولى ترى درفيلا. ابهجها ذلك، واستدارت وابتسمت لبول في اشراق.

قال بول:

"اسماك الدرفيل تأتي الى ساحلنا وستنعمين بمتعة مراقبتها أثناء اقامتك في البيت القائم على ربوة النسر".

وضحكت لمنظر تحركات الدرفيل في البحر، ثم سألت:

"ألن نقيم باستمرار هناك"؟

"ليس دائما".

"أعتقد أن الاعمال تحتم عليك السفر".

"أجل، سأقوم برحلة بعد شهور قليلة".

وكان اهتمامها كله موجها الى الدرفيل لكن شيئا ما في لهجته جعلها تنظر اليه، ولم يكن من المستطاع قراءة عينيه، لانهما كانتا خلف نظارة الشمس لكنها تساءلت اذا كان يعتبرها مجرد نزوة، وفي الوقت المناسب سيتركها تذهب واحست بشيء ما يغوص في قلبها. هل هي ملكه فقط طالما أن ذلك يروق له. تماما كما كان يمسك بها في تلك اللحظة بذراع قوية وأصابع صلبة تقيد معصمها. واجتاز مركبهما ميناء أنديلوس، لأنهما كانا متجهين الى المرفأ الخاص داخل ممتلكات بول لكن دومني استطاعت أن ترى في الميناء مراكب الصيد الملونة والمنازل البيضاء ووصل الى مسامعها صوت صياد شاب يغني، وظل صوته يلاحقهما حتى ابتعدا... وفي اهتمام سألت:

"ماذا تعني كلمات هذه الأغنية"؟

ورد بول ورنة سرور في صوته:

"انه يغني لحبيبته التي يتمنى أن يتزوجها عندما تستقر أخواته.. ليست أغنية عاطفية على النحو الذي توقعته. أليس كذلك؟ ولكن هذا هو التقليد في اليونان. اذا كان الابن هو العائل الأساسي للاسرة فيجب أن يساعدها حتى تتزوج أخواته".

وهمست دومني:

"كم هو صعب على الشاب المسكين. لا غرابة أن صوته

يبدو حزينا".
قال بول بجفاء:
"آه، لكن فتاته تحبه، وهو يعرف أنها ستنتظره، وأن قلبها سيختزن الحب".
واهتزت دومني لجمال الكلمات. لكن هل يزيد دائما الانتظار حلاوة الحب؟ ان هذه الفكرة تعبر بكل تأكيد عن العاطفية. ومع ذلك زعم بول أنه لا يؤمن في الحب!
وكان المرفأ محاطا بصخور قاتمة. والمياه الزرقاء تنساب اليه في رقة وتتكسر عند القناة الضيقة. وفكرت دومني في الجو العاصف، وكيف أنه لابد أن تبدو المياه وكأنها تغلي بين الصخور في هذا الممر الضيق فتصعب الملاحة.
ومن الشاطىء رأت أبراج الصخور ترتفع نحو السماء والطيور تبني أعشاشها فيها وتطير بينها وأعشاب البحر المزهرة تكسوها.
ورسوا بجانب صخرة كبيرة، ولاحظت دومني أن الشاطىء يتكون من مجموعة صخور، تفصلها المياه. والحشائش تتلوى فوق الرمال الشاحبة كالثعابين. وتعلو بجانبها بعض الشجيرات الصغيرة التي تحميها من الشمس المحرقة.
ووقفت دومني تتلفت حولها، وتتساءل عن كيفية الوصول الى البيت من الشاطىء ولم تلبث أن اكتشفت الطريقة،فقد أقبل أحدهم يحمل بطارية كهربائية كبيرة، ناولها لبول وهو يبتسم. وتكلم معه بول باليونانية، مشيرا الى المركب، ومعطيا أوامره بالنسبة للحقائب. ثم قاد دومني عبر فتحة كهف واسع.
وقال لدومني:
"منذ زمن بعيد كان هنا مخبأ للمهربين.انه يوصل مباشرة الى البيت. وهو آمن تماما. ان حركة المد والجزر بطيئة هنا، ولا تشتد الا عندما يكون الطقس سيئا. ومن الحكمة

حينئذ الابتعاد عن الشاطىء".
وضحكت دومني قائلة:
"يا لها من طريقة مبتكرة لوصول عروس الى بيتها. لكنها تناسب شخصية القرصان فيك".
وتردد صدى كلامها في الكهف. ونظرت دومني اليه وهما يعبران الممر الصخري، رجل غريب، متقلب، يضحك مثل صبي صغير.
وقال:
"الارض ترتفع، هل تحسين بها؟ سنصل حالا الى باب يفتح على السلم الذي يقود الى الحديقة، هذا الممر السري يعجبك أليس كذلك"؟
ووافقته بابتسامة قائلة:
"اجل، تعرف أنني خيالية".
قال باعتداد وبلهجته الخاصة:
"هذا شأن الانكليز".
وبعد دقائق أضاءت البطارية بابا خشبيا، يفتح على سلم حجري، وقال بول محذرا:
"من فضلك، كوني حذرة، السلالم متآكلة بفعل السنين، والآن احترسي، وأمسك بها عندما أوشكت أن تفقد توازنها، ولمدة لحظة، في الضؤ الخافت، التصقت به واحتبست أنفاسها واعتقدت أنه سيعانقها، لكنه أخلى سبيلها، وتابعت صعود السلم، محاولة ألا تبدو متعجلة، وتبعها في صمت حتى وصلا الى الخارج، حيث يوجد ممر يخترق حديقة تعلوها شرفات فسيحة، وكانت أشجار السرو تملأ المكان بألوانها الخضراء والذهبية، واشجار الفلفل مليئة بالعصافير المغردة. وقال بول وهو ينحني ليجمع باقة من الياسمين ذي الرائحة العطرة ويضعها في شعر دومني:
"في الجانب الآخر من البيت غابة صنوبر".

وتدلى الياسمين من شعر دومني وأحاط بوجهها، وملأ برائحته أنفها، لكن ما معنى أن يتوجها بورود الحب في تلك الحديقة التي بدت معلقة فوق البحر، كأنه يريد أن يقول لها بدون كلمات، أنها في تلك الليلة ستكون لأول مرة وحدها معه في بيته.

كان البيت فوق قمة الصخرة، معزولا عن العالم، وكان يبدو غامضاً في عيني الفتاة التي جاءت اليه عروسا. كانت جدرانه ذهبية، مع وجود سلالم تقود الى شرفة واسعة رصت حولها المقاعد والارائك والموائد، وعدد هائل من الاواني تنبت فيها أنواع مختلفة من النباتات. ومن فوق السور لم تر دومني سوى هوة سحيقة عميقة يليها البحر والصخور. وتراجعت لاهثة بعض الشيء، ثم استدارت لتواجه بول وهو يقول وقد مد يده السمراء اليها:

"تعالي... دعيني اريك البيت".

وذهبت معه، وما زالت متوترة من منظر الهوة، ودخلت البيت ويدها في يده من خلال باب زجاجي، وقال وهو يشير في اتجاه الغرفة الكبيرة بمقاعدها الوثيرة، ومراياها الأثرية القديمة قال:

"هذه هي غرفة الاستقبال".

ثم استدار ناحية المدفأة الحجرية وسألها:

"هل أعجبتك؟ الليل هنا بارد والانكليز يحبون النار في المدفأة أليس كذلك"؟

ورمته بنظرة طويلة، فجأة بدا لها أكثر غرابة من أي وقت مضى وأومأت برأسها بسرعة ردا على سؤاله، ثم أدارت بصرها بعيدا عنه، الى الجانب الآخر، حيث رأت سلما خشبيا نصف دائري يقود الى منصة يرتكز فوقها بيانو، كان سواده لامعا، وكان يبدو رائعا ورقت نظرات دومني كان البيانو من وسائلها الترفيهية المفضلة، ورغم أنها لم تدرس العزف،

الا أنها كانت ذات أذن موسيقية، وكان عمها يحب أن تعزف له على البيانو القديم في فردان.

وهمس بول:

"هل أعجبك يادومني"؟

وأومأت، ورغبت في الجلوس أمامه، وأن ترفع عنه الغطاء اللامع الذي يحجب عالما كانت تستطيع دائما أن تنسى فيه نفسها.

وقال بول: انه لك.

واستدارت تنظر اليه بعينين مرتابتين وهي تقول:

"لي أنا"؟

ابتسم قائلا:

"جيء به من أثينا منذ ثلاثة أسابيع، اما هذه المنصة فكانت لاستعمال جدي الخاص. حيث كان يوجد مكتبه المهيب. وفي الواقع فان هذه الغرفة كانت مكتباً. وهذه القطع من الأثاث جمعتها من أركان غريبة في البيت وأمرت بتنظيفها ونظفت حتى استعادت لمعانها، وهذه الأبسطة من جلود الدببة كانت في غرفة المختلفات أيام زوجة أبي... آه... ولكنك لا تهتمين بهذا كله"!

ولمست معصمه بحياء حيث الشعر الذي يحيط بالساعة، وقالت:

"بالعكس يابول، هذه الغرفة رائعة، ولكن أخبرني، ما هذه الكلمات المحفورة على حجر المدفأة"؟

وسار نحو المدفأة، وتبعته، ولاحظته وهو يمر على الحروف اليونانية باصبعه قائلا بصوت خافت خال من التعبير:

"هذه الكلمات تقول: "تحدوا قوى الظلام مثل أبوللو".

همست وهي تفكر في عجز بول عن مواجهة الضوء الشديد، او أشعة شمس اليونان التي يحبها:

"أبوللو كان رمز الضوء".

وتذكرت أنهما استمتعا مرات عديدة بحمامات الشمس على شاطىء يبعد عدة أميال عن أثينا ، حيث يدفن وجهه في الرمال ، ويترك بقية جسمه للشمس التي توجه الطعنات لعينيه ما لم يحمها خلف النظارتين وأحست دومني أن لذلك علاقة بالضوء الذي تعرض له ، والذي نتجت عنه تلك الندبة المخيفة فوق عينه اليمنى ، وسألته:

"متى سأرى أختك غير الشقيقة" ؟

وكانت قد فهمت من أحاديثه أنه يحب هذه الاخت كثيراً ، لكنه لم يكن على وفاق مع أمها ، وكانت أمه قد ماتت وهو في الرابعة من عمره ، وأخوه مازال طفلا ، وتزوج والده بعد ذلك بسنوات ، وكانت كارا ثمرة هذا الزواج غير السعيد . وقد مات والد بول فجأة اثر ازمة قلبية ، بينما كان يقود يخته في البحر الأيوني ، وكانت زوجته معه فغرقت عندما فقد اليخت توازنه وهو تحت قيادة رجل فارقته الحياة .

وكانت كارا تعيش مع عمة بول ، لأن مسؤوليات العمل كانت تبعده كثيرا عن أنديلوس ، وخططت دومني لأن تستضيف الفتاة خلال عطلات نهاية الاسبوع ، لقد أحست غريزياً بأنهما ستكونان صديقتين .

وقال بول:

"سنذهب غدا لترى كارا والعمة صوفيولا ، والآن لنكمل جولتنا في بيتك الجديد ياسيدة ستيفانوس" .

بيتها الجديد ! كان مليئاً بالممرات ، والأبواب غير المتوقعة . والأثاث الداكن ، والابسطة اليونانية المصنوعة يدويا ، وأخيرا الغرفة التي كانت ستنام فيها . الغرفة المجاورة مباشرة كانت غرفة بول ، وقد استقرت حقائب كل منهما في ، حجرته ، وذهب هو ليأخذ حقيبته الصغيرة الخاصة ، وظهر من جديد قائلا أنه سيهبط الى الطابق السفلي ليعمل ساعة او ساعتين . ووقفت تختبر بأصابعها المشاعل

الايطالية الجميلة الموضوعة على مائدة زينتها ، ثم قالت:

"شكرا يابول على البيانو" .

وعكست لها المرآة صورته ، كان طويلا فارعا ، وكان رأسها بمحاذاة قلبه ، وجذبها نحوه وهو يطوق خصرها ، وهمس في طيات شعرها الناعم حيث كانت باقة الياسمين مازالت معلقة وقد انتشر شذاها :

"الآن يادومني تبدأ حياتنا معا بالفعل" .

والتقت نظراتهما في المرآة ، ودب الاضطراب القديم في أعماق دومني عندما لمحت نظرة الرغبة في عينيه النحاسيتين .

ثم دار في غرفتها وسألها :

"هل أعجبك مخدعك" ؟

قالت وهي ترتعش:

"انه جميل جداً" .

وأغلق الباب خلفه ، وببطء فارقها التوتر الذي كان يستبد بها كلما لمسها ، ونزعت الياسمين من شعرها ، وخبأته في احد أدراج مائدة الزينة ، ثم تناولت فرشاة شعرها ، وكان شخص ما قد أفرغ حقائبها ، وأخذت تمشط الخصلات لتخلصها من بقايا الياسمين . وسمعت طرقا على الباب ، ودارت في ارتباك ، وهي عاجزة عن التفكير في الكلمة اليونانية التي تعني "أدخل" وأخيرا قالتها بالانكليزية ، ودخلت ليتا ، تبتسم بطريقتها الجادة ، وتمنت أن تعرف الذي مازال غريبا عليها ، وقالت:

"شكرا ياليتا" .

"انني تحت أمرك حتى تختاري وصيفة ياسيدتي" .

وعدلت ليتا غطاء السرير المزدوج ، ووضعت قميص نوم دومني في مكانه ، وقالت دومني وهي ترفع شعرها :

"أوه ... لا أعتقد أنني بحاجة الى وصيفة ... لقد

اعتدت الاعتماد على نفسي، ويبدو لي أمرا غير مستساغ أن يعنى بي من رأسي الى قدمي".

وبدت ليتا مذهولة بعض الشيء لكلام سيدتها الشابة وقالت:

"عليك ياسيدتي أن تجدي في القرية فتاة يعتمد عليها، وهي بدورها ستقدر لك اختيارها لخدمتك، ان بناتنا ينشأن على الطاعة والمساعدة، وسيدة في مثل مركزك يجب أن تكون لها وصيفتها الخاصة".

وأغرقت دومني في الضحك وقالت:

"حسناً جداً، حسناً جداً، ولكن اذا كنت حريصة الى هذا الحد على أن تكون لي وصيفة، فتولي أنت مهمة البحث عن واحدة. انكم يا معشر اليونانيين أكثر الناس تصميما وعنادا، ألستم كذلك"؟

"نحن كذلك ياسيدتي".

وابتسمت ليتا من جديد وهي تنحني لتلتقط وريقات الياسمين المتناثرة أمام مائدة الزينة واحدة واحدة، وحملقت دومني في شعرها الأسود الناعم، وتساءلت عما اذا كانت ستعتاد يوما طرق اليونانيين في الترتيب، فالحياة في فردان كانت سهلة للغاية، وغير معقدة. لم تكن هناك مشكلة خدمة، فقد كانت دومني تقوم بمعظم العمل بمعاونة عاملة تأتي يوميا. وسألت دومني:

"هل استمتعت باجازتك مع يانيس"؟

وردت ليتا برقة:

"قمنا بمساعدة والده في عمله في مزرعته الصغيرة.لقد كان عملا عن حب، وهذه اجازة في حد ذاتها".

وظلت دومني تفكر في كلام ليتا بعد انصرافها، كان حقا ما قالته ان الانسان لا يضيق بواجب او بتضحية، اذا كان العطاء عن حب. وبحماسة اتخذت مظهر الشجاعة،

نفذت دومني ما اقترحه بول، وذهبت للتعرف الى بيتها الجديد. كان البيت من الداخل غنيا بأخشاب السرو، وأخشاب الأرز، ولكن الزمن والايدي تركت بصماتها على كل شيء، فتآكلت اجزاء منها، ومن خلال احدى النوافذ، رأت بحرا من شجر الصنوبر وقد غطى الغابة ضباب بنفسجي وكانت للصنوبر رائحة نفاذة امتلأ بها الجو.

وهبطت دومني السلم الى الصالة وهي تشعر بوحدة غريبة في ذلك البيت الكبير المنعزل عن العالم، الذي تحيط به همسات المحيط والصنوبر. وفتحت أبوابا كثيرة، ونظرت من خلالها الى الغرف، لكنها كانت حريصة على تجنب الغرفة التي كان يعمل فيها بول، وكان قد أراها اياها وهما في طريقهما الى الطابق العلوي، وكان ذلك سببا لارتياح دومني اذ عرفت أنه سيقضي جزءا من كل يوم في هذا المكتب.

وأثناء انشغاله في عمله، بوسعها أن تكون حرة، حرة في أن تكتشف الجزيرة، وأن تسبح وكانت تعتقد أن ذلك سيساعدها على مواجهة الأمسيات والليالي. وجاء لها يانيس بالشاي والحلوى وبعدما تحدثت معه لبضعة دقائق، خرجت الى الشرفة الكبيرة لتشرب الشاي. ومن ذلك المكان كان الأفق يبدو أشبه بقوس فضي يلقي سهاماً من اللهب تحت وهج الشمس الغاربة وكان منظرا انحبست له أنفاس دومني ثم بدأ الظلام يزحف، وعادت الى الداخل، وصعدت الى الطابق العلوي لتأخذ حماما ولترتدي ملابس العشاء.

وكان العشاء يقدم متأخرا في اليونان، لذلك كان لدى دومني وقتا كافيا لأن تستحم على مهل، وأن تسترخي في الحوض الكبير الذي يكاد يتسع للسباحة.

وكانت غارقة في بهجة حمامها، عندما فوجئت ببول يهتف لها:

"لا تمضي ليلتك كلها في الحمام ياعزيزتي".

فاجابته:
"ساكون معك بعد قليل"!
وعندما جلسا الى الطاولة بعد قليل أشاحت عنه بوجهها، وتشاغلت بمشاهدة الازهار في الزهريات. وقالت هامسة:
"احب رائحة الأزهار والاخشاب هنا، هذه الغرفة كلها في الواقع جميلة".
قال مازحا وهو ينظر اليها:
"نقطة الضعف فيّ يادومني، أن لي عيناً يونانية في اكتشاف الجمال".
سألت في صوت خافت:
"هل هذا هو عذرك الوحيد يابول"؟
أجاب وقد فهم مرماها بسرعة.
"ليس تماما، لدي سبب آخر، ولكني لا أنوي أن أخبرك عنه في هذه المرحلة".
وأحست بقلبها يكاد يخترق صدرها وهو ينطق بهذه الكلمات، ما الذي كان يعنيه؟ انه أرادها زوجة لأنه أحبها؟

٧ - وجه من الماضي

"أيتها الطفلة، هل لك أن تهدأي"؟
توسلت بهذه الكلمات السيدة ذات العينين الحزينتين، التي جلست على مقعد من الخيزران، تشتغل الدانتيلا، كانت ترتدي السواد، من الغطاء الصغير فوق شعرها الرمادي، الى أطراف الحذاء الضيق في قدميها، وكان الراديو الصغير الموضوع فوق المنضدة المجاورة لها يشير الى أن سنوات الحداد الثلاث الأولى على زوجها قد مرت، وأنها تستطيع الآن أن تتمتع ببعض المباهج الخفيفة.
وقالت كارا ستيفانوس معترضة وهي تقفز:
"ولكنهما ياعمتي صوفيولا سيصلان في أية لحظة".
ثم تدلت من سور الشرفة الحديدي، وبذلك كانت تستطيع أن ترى سيارتهما. وكان وجهها الذي لفحته الشمس منفعل التعابير، وهزت العمة رأسها عندما أنصرفت عما كانت تطرزه.
كانت على ذراعي كارا علامات حمراء، احدثتها بأظافرها وفكرت العمة في أن بول يجب أن يعرض أخته على أخصائي أعصاب. ومرت كارا بجانب مقعد عمتها

كالحصان الأسطوري "بيغاسوس" ذي الجناحين، في اتجاه السلم وهي تردد:

"ظهرا... انهما قادمان"...

وفتحت بسرعة بابا صغيراً يؤدي الى الطريق، والتمعت عيناها وهي تجري نحو السيارة ذات اللون الكريمي التي وقفت أمام البيت... وصاحت باليونانية:

"مرحبا بعودتك يابول".

وتأملته دومني وهو يرفع أخته النحيلة بين ذراعيه، ثم وهما يتعانقان بفرح غريب. واحتضنت الفتاة وجهه بين يديها السمراوين، وهي تردد اسمه، بينما انهمرت دموعها. وقالت:

"افتقدتك كثيرا، كيف حالك يا أخي"؟

"أنا في أحسن حال أيتها الصغيرة".

ثم قال بعد أن أنزلها على قدميها:

"والآن يا سنجابتي. تعالي قابلي زوجتي، دومني".

وفتح باب السيارة، وخرجت دومني لتواجه لفحات الشمس الحارة. كانت ترتدي ثوبا سماوي اللون، وبدون أكمام، وكانت تبدو غاية في الرقة والجمال، حتى أن كارا لم تملك نفسها من التحديق فيها.

وقال بول بالانكليزية:

"قبلي أختك الجديدة ياكارا".

وتقدمت الفتاة في ارتباك من دومني، وقالت وقد احتقن وجهها خجلا من قبلة زوجة أخيها الناعمة على وجنتها السمراء:

"مرحبا بك في أنديلوس، وفي أسرتنا يادومني".

ثم تراجعت لتقف بجانب بول، وأطلق ضحكة وهو يحيط خصرها الضئيل بذراعه، وسأل:

"كيف حال الجميع ياكارا؟ هل العمة صوفيولا بخير"؟

"أجل، ولكنها كانت قاسية جدا معي تقول أن حالتي العصبية

سيئة، وأنها ستطلب منك أن ترسلني الى أخصائي أعصاب".

صاح:

"ياله من كلام فارغ. ماذا فعلت"؟

"أحيانا أحك جلدي".

وحكت جلدها بالفعل وهي تتكلم، وتركت احتقانا على ذراعها الأيسر. وعبس بول في وجهها، وضربها على يدها، ثم استدار وقال لدومني بجفاء:

"كارا ليست في الحقيقة قردة يا عزيزتي ولكنها تقلدها".

وأطلقت كارا ضحكة صغيرة تدل على الخجل، ثم جذبت احدى يدي أخيها، ورفعتها وقبلتها، وبحثت وجهه بعينيها السوداوين السريعتين، وقالت بسذاجة:

"أعتقد يابول أنك سعيد لأنك تزوجت".

وأجابها على ذلك بأن قرص مداعبا أرنبة أنفها - وقال:

"ستجعلين دماء الخجل تتدفق الى وجه دومني بملاحظاتك، انها انكليزية، يجب أن تتذكري ذلك، ولم تتعود بعد على طريقتنا في الكلام".

"ولكنني سعيدة للغاية لانك تزوجت يابول".

ثم استدارت وواجهت دومني بابتسامتها الساذجة قائلة:

"كنت قد بدأت أعتقد أنه لن يتزوج ابدا، وليس في صالح الرجل أن يظل بلا زوجة. وانا سعيدة الى حد الرغبة في الغناء، لأن أخي الوحيد العزيز اختار لنفسه مثل هذه الزوجة الجميلة".

وتأثرت دومني تأثرا شديدا، كانت قبل هذه الكلمات البريئة الصادقة الصادرة عن الفتاة، تحس بالتواضع. وبدأت تخشى أن تكتشف كارا، أن أخاها وزوجته لا يجمعهما الحب كما اعتقدت. وراقبت بول مع أخته الصغرى، ولمحت في عينيه بريق الرضى وثلاثتهم يقتربون من دخول البيت، واقترحت كارا أن يقبل بول دومني عند أول درجة في

السلم، حتى تدخل بركة حبهما الى البيت معهما ·

وكانا قد جاءا لقضاء عطلة نهاية الاسبوع في هذا البيت اليوناني القديم فوق ميناء أنديلوس، بدعوة من عمته التي اتصلت به تليفونيا، وألحت على ذلك، ووقفت العمة في الصالة، ترحب بابن أخيها وعروسه بتقديم العنب المسكر والماء المثلج كعادة اليونانيين وسألت كارا بلهفة اذا كانت تستطيع أن ترشد دومني الى غرفة نومها، فقالت العمة وهي تضع يدها على كم بول:

"أجل، اجل، أيتها الصغيرة القلقة، وتعال أنت يا أبن أخي، لنتحدث معا في الشرفة، عندي ما أريد قوله لك"·

وقالت كارا مقطبة وهي تمسك بيد دومني:

"أراهن أن بعض هذا الحديث عني"·

وصعدا معا السلم الى الطابق العلوي، وعبرا قاعة كبيرة، وقالت كارا ضاحكة:

"يئست العمة صوفيولا في جعلي سيدة مجتمع، لقد فصلوني من مدرستي في أثينا منذ بضعة شهور"·

ورمقتها دومني بنظرة جانبية وقالت:

"أوه··· لماذا"؟

"لانني عزفت على قيثارتي في مكان عام، مع انه شيء لطيف ولكن مديرة المدرسة قالت انها فحة وجموح··· وعندما جاء بول ليأخذني، حدثت بينه وبين المديرة مشادة مخيفة، ان بول يعرف أنني لا أقصد أن أكون متوحشة، لست متوحشة حقا"·

قالت دومني:

"أنت في مرحلة انتقال"···

"بالضبط··· انني نصف طفلة··· ونصف امرأة، ومتمردة على الاثنتين· آه، لقد عرفت انك ستقدرين وستفهمينني"·

وتلقت يد دومني ضغطة منها حين استمرت الفتاة تقول:

"رأيت ذلك في عينيك للوهلة الاولى، هذه غرفتك وغرفة بول"·

وحينما فتحت كارا باب الغرفة المزدوجة القديمة، شعرت دومني بغصة في حلقها·· كانت حقيبتها قد أحضرت مع حقيبة بول، وكانت الوصيفة قد أفرغت محتويات الحقيبتين، ووضعت قميص نومها بجانب بيجامة زوجها·

واقتربت كارا من السرير الكبير وقفزت جالسة فوقه وقالت:

"أجل، سيشعر كلاكما بالراحة في هذا السرير"·

ثم لمست قميص نوم دومني بأصابع خجلة، وسألت:

"الا تشعرين في نسيج العنكبوت هذا بالبرد؟ آه، ولكن، كلا بالطبع"·

وأطلقت ضحكة، وحدقت بمرح ساذج في دومني وقالت:

"ربما يكون من الرائع أن تكوني امرأة، ام لا"؟

"هذا وضع له ضحكاته، وله أيضا دموعه"·

وألقت دومني الى كارا رزمة صغيرة أخرجتها من حقيبة يدها، فهمست كارا:

"والآن، ما هذه"؟

وفي ابتسامة لطيفة طلبت منها دومني أن تفتح الرزمة وان ترى ما فيها، وفعلت كارا ذلك بأصابع منفعلة، وحبست أنفاسها وهي ترفع غطاء العلبة المربعة، وتكشف عن علبة بودرة رقيقة، وأحمر شفاه، ونظرت كارا بوجهها الأسمر في مرآة العلبة، وقالت باليونانية·

"أتمنى لو كنت جميلة يادومني لتناسبني هديتك، شكرا كثيرا"·

وداعبت كارا العلبة بأصابعها، ثم عادت تقول:

"ما هو شعور المرأة عندما تكون جميلة، جميلة حقا، مثلك"؟

وتلاشت ابتسامة دومني وهي تنظر الى أخت بول مصدومة، فالحقيقة مرة، لم تكن تستطيع أن تجيب قائلة: "لقد

تعلمت أن الجمال فخ، انني أكرهه لأنه جعلني ملكا لأخيك، ولأنني مجرد متاع له، فانني مدفوعة الى ايذائه، لا أستطيع أن أكف عن ايذائه، لقد أصبحت قاسية وضئيلة، لأن لي هذا الوجه، وهذا الجسم".

وقالت بجدية:

"الجمال في الاعماق".

"تعنين أنك يمكن ألا تكوني جميلة في أعماقك"؟

وكانت نظرة كارا نفاذة، هي الصغيرة في بعض تصرفاتها، كانت أكبر في البعض الآخر، ووقفت دومني عند طرف السرير مشدودة خشية أن تكون كارا شعرت بعدم حبها لبول.

وقالت كارا:

"كتب لي بول يقول أنك تشبهين لوحة "ميديتشي" وأعتقدت أنه لابد أن يكون مبالغا".

وسألت دومني متلعثمة:

"ما ... ماذا"؟

"لوحة "ميدتشي" والآن أرى أنه لم يكن مبالغا، ان لك الملامح الرومانية النبيلة نفسها وأنا أتوقع أن يرغب "باري سوتيرن" في رسمك، ان باري يعيش في كوخ على الشاطىء وعمتي تدعوه النصّاب، ولكنه في أي حال موهوب وهو أيضا انكليزي، مثلك يادومني".

وشحب وجه دومني. كان باري هنا... هنا في اليونان، وكان يعيش في كوخ في جزيرة أنديلوس! وترنحت، وقفزت كارا من السرير، واقتربت بسرعة منها، ووضعت ذراعا حولها وهي تقول:

"ماذا بك؟ هل تشعرين بالغثيان"؟

وتماسكت دومني وقالت برجفة:

"من المحتمل أن يكون ذلك بسبب الحرارة، أنا ... أنا

لم أتعود بعد على شمسكم".

ونظرت كارا الى وجه دومني الشاحب بقلق وقالت:

"ستشعرين بتحسن عندما تشربين فنجان شاي، هل احضر الشاي هنا، أم تفضلين اللحاق بالآخرين في الشرفة"؟

"دعينا نذهب الى الشرفة".

أحست دومني بالحاجة الى الهواء بعد الصدمة لمعرفتها أن بول - دون الناس أجمعين - أحضرها الى المكان الموجود فيه باري. لقد كان ذلك قدرا، فكرت في ذلك وهي تتجه ناحية المرآة لتمشط شعرها وحملقت في عينيها الواسعتين، ورأت أنها خائفة، مثلما هي متلهفة لرؤية باري.

كانت خائفة من بول، الذي ذكرها في اليوم السابق فقط، أن الشرف ضمن ما أقسمت عليه عندما أصبحت زوجته.

وكانت تضع أحمر الشفاه الوردي على شفتيها، عندما دخل بول الغرفة، ويده في جيب البنطلون الخفيف الذي كان يرتديه مع قميص سبور في لون الرمل، وسأل:

"ألا تريدان أيتها الفتاتان أية منعشات؟ الشاي يقدم الآن في الشرفة".

وقالت دومني:

"انني أرتب ملابسي يابول".

وتمنت ألا تخبره أخته بما اعتراها من ضعف منذ لحظة، وراقبته في المرآة عندما انحنى فوق كارا، وأخذ وجهها بين يديه.. وسأل مبتسما:

"لماذا هذا التعبير الشارد يا صغيرتي؟ اعتقدت أنك سررت لرؤية أخيك، كنت غاية في السخاء بقبلاتك عندما التقينا أمام باب البيت".

ونظرت كارا اليه، ورفعت يدها الى شعره، والى الندبة، وكلمته باليونانية، وتأكدت دومني التي بدأت تفهم قليلا أن كارا تذكر شيئا عن أزمات الصداع التي تنتابه. ولم تفهم

اجابته، ولكن نغمة صوته كانت رقيقة، وأضاف بالانكليزية.
"حسناً ياكارا، ماذا كان رأيك في الهدية التي أرسلتها اليك من أثينا"؟
وأشرق وجه الفتاة، وكانت دومني قد عرفت من بول أن اخته مولعة بالموسيقى الشعبية. وكانت تجمع الأغاني القديمة كما تجمع الفتيات الأخريات الدمى، وكانت تعزف على عدة الآت موسيقية، وقد عثر بول في أحد محلات بلاكا على آلة "ماندولين" جميلة، فاشتراها وأرسلها لكارا.
وقالت كارا بحماسة:
"أوتارها ذات رنين رائع. سأعزف عليها لك ولدومني بعد العشاء".
وابتسم بول قائلا:
"سننتظر عزفك بلهفة، دومني نفسها موسيقية، انها تعزف على البيانو ببراعة".
ولمعت عينا كارا كالماس الأسود، وقالت:
"دومني تحب الموسيقى؟ أوه، الاقدار معي اليوم، دومني لطيفة مثلما هي جميلة، وهي أيضا تعزف على البيانو"!
واحتضنت كارا أخاها واستطردت قائلة:
"شكرا لك يا أخي الكبير على الماندولين، وعلى دومني".
وقال بول وهو ينظر الى دومني:
"أنا سعيد لاعجابك المزدوج"!
واستدار ناحية زوجته وقال:
"هل أنت مستعدة ياعزيزتي"؟
وأومأت، وابتسمت لكارا، فقد أدركت مدى تعلقها ببول، ومدى اشراقها، واعجبت بنظرات الطفولة الصريحة التي تلازمها. ووقفت دومني في الشرفة، وبدت لها ميناء أنديلوس أشبه بلوحة مزدهرة الالوان، وأخذ بول وكارا يلفتان نظرها الى مراكب الصيد بأشرعتها الملونة، والدير المبني من

الحجر الابيض، وقد تسلقت جدرانه النباتات الأرجوانية، والى الجزر القريبة المتناثرة كأنها كتل المرجان. ونظرت دومني حولها في اهتمام، وكانت الشمس تلمع فوق شعرها، وثوبها ينساب في نعومة. فبدت هشة بجانب زوجها القوي.
ولم تتنبه الى أنها كانت موضع تحديق الرجل الذي جلس على مقعد مجاور حيث جلست عمة بول. وكانت كارا هي التي لاحظت نظراته عندما استدارت فجأة بطريقتها المعتادة، وهتفت:
"أهلا، لم تكن لدي أدنى فكرة أنك ستأتي لتناول الشاي".
أجاب:
"أردت أن اشترك في الترحيب بعودة الغائب".
وتجمدت دومني في مكانها لدى سماعها صوته، ثم التفتت في بطء، ووجدت نفسها وجها لوجه مع باري سوتيرن مرة أخرى! لم يكن قد تغير على الاطلاق، باستثناء لمسات النضج المتزايد. وحملقت عيناه الشقراوان الناعستان في عينيها، وتذكرت جيدا ذلك الفم الواسع المرح الباسم، وتلك الخصلة المتهدلة من الشعر الذهبي.
وتساءلت بقلق اذا كان سيعلن معرفته بها، ثم أكدت لها غريزتها الأنثوية أنه لن يفعل، وأحست بالاضطراب عندما نهض من مقعده، وقال لبول بابتسامة ماكرة:
"انت شديد الحظ... اراهن انك اذا سقطت في البحر، تخرج ومحارة في أذنك، محارة داخلها لؤلؤة"!
"أرى ياصديقي من النظرة اللامعة في عينيك الفنانة، أن "لؤلؤتي" تروق لك".
وعندما قاد بول دومني الى المائدة في الشرفة ليقدم باري اليها أحست بقبضة ذراعه القوية حول خصرها.
وقالت دومني:
"كارا أخبرتني ياسيد سوتيرن أن أعمالك رائعة".

وأحست وهي تتعامل مع باري كغريب، أنها تلعب لعبة خطيرة. ورد هو:

"سأكون سعيدا بأن اريك بعض أعمالي ذات يوم يادومني".

وأحست بقلبها يحذرها، حين رأت بول يرمق باري بواحدة من نظراته الحادة، ولكنها في الوقت نفسه أرادت أن تقول: "لقد عرفت هذا الرجل قبل أن تقتحم أنت حياتي يا طاغيتي الوسيم بوقت طويل. لقد جاءني بالمرح، وليس بالتهديد، وذهب عني لأنني كنت صغيرة عندما تقابلنا، ولأنه كان يريد أن يثبت أقدامه كرسام".

ولكنها قالت:

"سأتطلع الى رؤية بعض أعمالك يا سيد سوتيرن، ويخيل الي أن نوعية الضؤ هنا في اليونان لابد ان تترك تأثيرها الرائع على عمل الفنان، الألوان والخطوط لاشك انها ذات رونق مضاعف".

قال وهو يضغط على حروف الاسم:

"هذا صحيح بكل تأكيد ياسيدة ستيفانوس".

وارتفعت عيناه الى وجهها الذي أحاط به شعرها العسلي، فوجدهما جامدتين، باردتين، وتذكر جيدا مرحها في الماضي، وشعر بالانزعاج وهو يتأملها تجلس على مقعد بجوار عمة بول، وتجيب على أسئلة العمة صوفيولا عن حفلة العرس، وشهر العسل، بينما كانت الأخيرة تصب الشاي، وقدمت كارا الحلوى والفاكهة، ثم جلست على ذراع مقعد أخيها، وهي تأكل حبة تين كبيرة.

وقال باري موجها كلامه لدومني:

"لابد أنك زرت الاكروبوليس عندما كنت في أثينا"؟

"زرته نهارا ومساء، وأعجبني".

وقال بول بابتسامة جافة:

"دومني من النساء اللواتي يفضلن الأشياء المقنعة

على السافرة، الأعمدة الأثرية أزعجتها في ضؤ النهار".

وقال باري ناظرا الى دومني.

"غالبية النساء خياليات، واني أتساءل ياسيد ستيفانوس اذا كنت ستسمح لي برسم زوجتك"...

واحتقن وجه دومني لكلام باري، ذلك أن العيون كلها اتجهت ناحيتها، حتى عيني بول غير المقرؤتين، خلف عدستي نظارة الشمس الرمادية، وتمنت لو تقول: "لا يا باري... لا تجعل الأمور أصعب مما هي عليه الآن".

وابتسمت كارا في براءة لدومني، ثم نظرت الى بول وقالت:

"يالها من فكرة رائعة... يجب أن تدع باري يرسم دومني".

وأضافت:

"أوه، سيثير ذلك غيرة "ألكسيس". انها تعتقد أنه لا توجد من تماثلها جاذبية".

وسأل بول:

"على فكرة، أين الكسيس"؟

وفهمت دومني من تعبير فمه أن طلب باري لم يعجبه، ووجد في السؤال عن زوجة أخيه "ألكسيس" منفذا لتغيير دفة الحديث.

وقالت كارا:

"ذهبت الكسيس في نزهة بحرية مع ناس يستأجرون منزلا على مقربة منا، حيث سيقضون الصيف، انهم أمريكيون أثرياء، ولذلك اندمجت معهم الكسيس بطبيعة الحال".

وقالت عمتها بحدة:

"هذا يكفي، هذا شأن الكسيس اذا كانت تفضل صحبة المتحضرين على الصيادين والمتجولين على الشاطىء".

وضحكت كارا وهي تنظر الى قدمي باري العاريتين، الا من صندل على الطراز الروماني وقالت:

"أعتقد أن العمة صوفيولا تعنيك، ياباري، لانك تسكن في كوخ على الشاطىء".

وبعدم اكتراث عقد ساقيه، ونظف بنطلونه من فتات الحلوى، وفهمت دومني من تقطيبة وجهه أنه يفكر في الأيام القديمة، ذات أمسية، في مركب على الشاطىء الانكليزي، لمح بأنه يجب أن يرحل... ورغم ذلك لم تشعر بالحزن، ذلك أنها كانت تحس أنهما لابد سيلتقيان مرة أخرى. وأفاقت دومني من شرود أفكارها، لتجد أن كارا جلست منكمشة بين ذراعي بول مثل قطة صغيرة، وهزت العمة رأسها وهي تتأمل الاثنين، وقالت:

"انك تفسدها يابول، كارا بلغت السابعة عشرة، ويجب أن تبدأ في تعلم الاتزان، انك تعاملها كقطة، وليس كل الرجال يحبون أن تتخذهم زوجاتهم مقاعد مريحة".

وجرت الضحكات أشبه بالريح على فم بول، وربت على شعر أخته الداكن، كان مقصوصا بطريقة غريبة، كما كانت قد عبثت فيه بالمقص.

وابتسم بول قائلا:

"آه، حسن، ان أحدنا لم ير الآخر منذ حوالي ثلاثة شهور، وأنا مدين لها ببعض التدليل".

وأغمضت كارا عينيها الداكنتين، وبدت كقطة فعلا وهي تمسح وجنتها في صدر أخيها. أما دومني فجعلها صوته الحاني تتذكر الليلة في الفيللا عندما بدأ شهر العسل.. ذلك الصوت العميق الدافىء، نقلها الى الجنة، وكم آلمها، ولا يزال يؤلمها، اكتشافها أن بول خدعها.

وابتسمت كارا لدومني وقالت:

"كم يبدو غريبا أن أفكر الآن في بول كزوج، وأرجو ألا يضايقك أنني استعمل زوجك كمقعد مريح".

وقالت دومني باستخفاف:

"اهلا وسهلا بك"!

ولكن لم يخف عليها ان بول قطب جبينه، ولا النظرة التي ألقاها باري على ساعة معصمه، كما لو انه لاحظ شيئا في سلوكها ارتسم صداه في عينيه، فأسرع يخفيهما حتى يسيطر على نفسه من جديد، وتلاحقت نبضاتها وقد أحست بالخطر يحدق بالاجواء.

ونهض باري واقفا، وانحنى أمام عمة بول قائلا:

"شكرا يا سيدة ستيفانوس على الشاي".

ثم نظر الى دومني وقال:

"اتمنى أن تستمتعي بالحياة في الجزيرة، ولعلك أنت وكارا تشرفانني في يوم من الأيام".

وقالت دومني لتسكته:

"سأفكر في ذلك".

وانتقل باري ببصره الى بول وقال:

"وستفكر ياسيد ستيفانوس في السماح لي برسم زوجتك"؟

وأحست دومني في سؤال باري بالتحدي، وانتظرت بقلب خافق رد بول الذي قال:

"اجل، سترسم زوجتي ياسيد سوتيرن ولكن ليس الآن. وأعتقد أنه لن يضيرك أن تنتظر بضعة شهور".

وأطلق باري ضحكة قائلا:

"سآخذها على أنني يجب أن أنتظرا من حسن الحظ أني استأجرت الكوخ لمدة سنة".

رد بول في بطء:

"لن أدع أيا منكما ينتظر عاما"...

وفي تلك اللحظة سمعت دومني عمته بجانبها تحبس أنفاسها عندما وخزتها ابرة التطريز في اصبعها، وقالت وهي تلتقي بنظرة دومني الجانبية.

"يالي من حمقاء، حمقاء للغاية في كبر سني، لقد تركت

على الدانتيلا بقعة دم".

وعلقت دومني وهي تتابع باري بعينيها:

"يا للخسارة".

واتجه باري نحو السلم، طويلا، فارعا، وأشعة الشمس فوق شعره الذهبي، حتى ذلك الحين كانت دومني لا تكاد تصدق أن باري عاد الى حياتها. ولكن كغريب.

ونادت كارا خلفه:

"لا تنسى حفلتنا مساء الغد للترحيب بدومني وبول، ستأتي، أليس كذلك"؟

وابتسم لها قائلا:

"ما من شيء يمكن أن يحول بيني وبين المجيء، وداعا جميعا.. وحتى مساء الغد".

وساد صمت ثقيل بعد رحيله، ثم قامت كارا وسألت دومني اذا كانت تحب أن ترى ثوبها الذي سترتديه في حفلة الغد. ورحبت دومني بالفرصة للفرار، ولكن عندما مرت أمام مقعد زوجها، أمسك بيدها وتأملها لحظة، وأحست بقلبها يخفق بين ضلوعها وهو يتفحص وجهها من خلف العدستين الرماديتين اللتين كان يبدو بهما غامضا، جامدا، وقال بهدوء مثير:

"يبدو أنك وجدت باري سوتيرن شخصاً مسلياً".

"أعتقد ذلك لأنه انكليزي".

وأحست بضغوط أصابع بول، وانسحبت الابتسامة من على شفتيه وهو يسألها:

"أما زلت تشعرين أنك غريبة معي"؟

وعضت شفتها، وأحست بكارا وعمته ينظران نحوهما، وحينئذ ادار بول يدها ببطء، ورفعها، وقبلها، وتلقت دومني القبلة بدون أية حرارة في قلبها، مدركة أنها مجرد اعلان عن ملكيته، عن نزوته.

٨ - نمر رابض في داخله

أطلقت دومني صيحة امتزجت فيها الدهشة بالطرب، اذ كان مخدع كارا أشبه بمحل للآلات الموسيقية الغريبة، وعبست كارا لرد فعل دومني، ثم التقطت آلة الماندولين التي أمداها لها أخوها، وداعبتها بيدها النحيلة، وهي ترمق دومني بعينين داكنتين كعيون الفجر.

والتقطت دومني صورة عن المكتب لسمراء جميلة، كانت ترتدي ثوب زفاف، شعرها كان مصففا بطريقة غريبة، واقتربت منها كارا ونظرت من وراء كتفها وقالت:

"انها صورة أم بول، بول يشبهها، ألا تعتقدين ذلك؟ وهذا هو والدنا في الاطار المجاور، مسكين ابي، لم يكن سعيدا مع أمي، انني لا أتذكرها جيدا، ولكن العمة صوفيولا تقول دائما أنها كانت النزوة الحمقاء لرجل في منتصف العمر.

وداعبت كارا أوتار آلتها واستطردت قائلة وهي تضحك:

"وانا ثمرة ذلك الزواج... الثمرة الشاذة"!

واغتاظت دومني، ذلك أنها أحبت في الفتاة براءتها.. وسألت:

"من زعم أنك شاذة"؟

قالت كارا:

"أوه، ألكسيس، وأحيانا عمتي، انهما لاتفهمانني، وتعتقدان انه من الغرابة أن أعشق الموسيقى الشعبية الى هذا الحد".
وسألت دومني وهي لا تشعر بالارتياح نحو ألكسيس:
"الكسيس كانت متزوجة من أخيك الأصغر ياكارا، أليس كذلك"؟
وردت كارا بوجه معكر:
"أجل، كانت زوجة لوكاس، لقد مات منذ ثمانية عشر شهرا، في البحر مثل أبي... البحر قاس علينا، رغم أنه مصدر رزقنا".
وقالت دومني برقة:
"انني آسفة على موت أخيك ياكارا".
ولمعت الدموع في عيني الفتاة، فحولت دومني انتباهها ناحية صورة أخرى حتى لا تزيد من آلامها، وطالعتها صورة الوجه الأسمر من خلال اطار آخر، صورة بول عندما كان في مثل عمر كارا تقريبا، ولكنه كان بول غيره الآن، بملابسه الغريبة من جلد الماعز، وقبعته الصوفية فوق وجهه الرفيع.
وقالت كارا بفخر:
"كان بول في السادسة عشرة من عمره عندما حارب مع المقاومة، كان مقاتلا فدائيا، وقد أصيب اصابة بالغة بقنبلة يدوية أثناء معركة أثينا، وكاد يموت، وكان ذلك سبب حدوث الندبة".
ولمست كارا باصبعها وجهه الخالي من الندبة في الصورة، وعادت تقول:
"الندبة لا تهم.. ما زال بول أوسم الرجال في الجزيرة، ولسوف ترزقان بأبناء رائعين".
وأمسكت كارا عن الكلام حينما أعادت دومني الصورة الى مكانها على المكتب بسرعة تسببت في وقوعها، وأطلقت دومني ضحكة صغيرة مقتضبة، وقالت:
"تزوجت أنا وأخوك منذ بضعة أسابيع فقط ياكارا، ولم

نفكر بعد في تكوين أسرة".
قالت كارا بحرارة:
"لكن الأطفال فرحة كبيرة، انهم أرق جانب في الزواج، أوهكذا يبدو لي".
"أنا، أنا لا أريد أن أتحدث في هذا الموضوع، اذا لم يكن في ذلك ما يضايقك يا كارا".
وبدت دومني مرتبكة، مرتجفة، وهي تتصفح كتابا عن أغاني البحر ولكن كارا اغتاظت بعض الشيء، وبالحاح طفولي عادت تطرق الموضوع. وقالت:
"ألا تتمنين أن تمنحي بول طفلا؟ ان فخر كل امرأة يونانية هو أن تعطي رجلها ولدا. هل الانكليزيات مختلفات؟ هل هن باردات... مثل جمالهن"؟
وأجابت دومني في صوت خافت:
"اننا... ليس من عادتنا أن نتناقش في أمورنا الخاصة".
وكانت دومني بعيدة كل البعد عن النفور من الأطفال، ولكن الطفل في رأيها كان يجب أن يولد عن حب، ولم يكن حبا ما يستشعره بول عندما كان يأخذها بين ذراعيه. وداعبت كارا أحد أوتار الماندولين، واختلست نظرة نحو وجه دومني وهي تتظاهر بتصفح الكتاب الذي كان بيدها، وسألتها:
"هل نبدو نحن... والجزيرة... غرباء عليك"؟
قالت دومني:
"أنديلوس عالم آخر بالنسبة الي. أحس بأجوائها الأسطورية، لكنني أدرك عدم انتمائي اليها في الوقت نفسه".
اعترضت كارا قائلة:
"ولكنك بالطبع تتمنين... انت زوجة بول... وهذا يجعلك واحدة منا، لا شك أن عاداتنا ستبدو غريبة في البداية، ولكنك في وقت قصير للغاية، ستشعرين وستتصرفين كزوجة يوناني، وستجدين متعة في ذلك".

وأضافت كارا ضاحكة:
"بول شديد السيطرة بالطبع، وأنت انكليزية ومن الطبيعي أن يحدث صراع، ولكن كما نقول في اليونان، لا يوجد زواج خالي من الصراع، ثم من المصالحة".
سألت دومني في هدوء
"هل نبدو حقا يا كارا متصارعين"؟
قالت كارا مؤيدة:
"أستطيع أن أقول أنه توجد بعض الخلافات بينكما، ولكن بداية الزواج هي مرحلة وضع الأمور في نصابها، والسعادة تكتسب ولا تقدم لنا فوق طبق".
وابتسمت دومني متسائلة:
"هل كل اليونانيين فلاسفة"؟
والتفتت كارا قائلة:
"بالطبع، كان اليونانيون متحضرين، عندما كان غيرهم متخلفين... تعرفين ذلك طبعا".
وأحنت الفتاة رأسها فوق آلتها، وارتفعت أنغام موسيقية يونانية قديمة، واستمعت اليها دومني وهي تفكر في بول، والنمر الذي يربض في أعماقه.
النمر، النمر، يهدر في الظلام، بعينين ذهبيتين تتأججان بالرغبة التي تحركها هي في أعماقه وتكرهها، ووقفت وعيناها فوق صورته في شبابه. وقالت حينما توقفت كارا عن العزف:
"أنت تجيدين العزف يا كارا".
وتحسست كارا الماندولين بأصابع يسري فيها الحب، وقالت:
"هذه الآلة تجعل أي نغم جميلا. ان بول يحضر لي دائما الهدايا التي أحبها، ذات مرة، عند عودته من احدى رحلاته، أحضر لي معه شجرة ورد حقيقية، وقد علقت بأغصانها

العصافير... ولكن ذلك عندما كنت صغيرة".
وذهبت دومني الى غرفتها ترافقها موسيقى المندولين، وفتحت الباب وفوجئت عندما رأت بول واقفا في الشرفة. أما هو فاستدار عندما سمع وقع خطواتها وسألها مبتسما:
"هل أعجبك هذا البيت القديم"؟
ووصلت الى منتصف الغرفة، ولاحظ البريق القاسي في عينيها، كأنها دموع متجمدة ترقد فيهما. وسمعها تقول:
"ماذا تريد مني أن أجيب يابول؟ ان المكان ساحر، وأنني سأحب زيارته"؟
وبحركة تنطق بالتعب وبالضياع، ازاحت الشعر من فوق عينيها. وقالت:
"البيت ساحر، لكنه مليء بأقاربك الذين سيتكهنون ولا شك كيف تسير الأمور بيننا. هل تعرف أن كارا حدثتني عن ذلك"؟
قال ببطء وهو ينفث دخان سيكاره المتصاعد في حلقات أمام عينيه الذهبيتين:
"لا أستطيع أن أبدأ بالتكهن".
"كانت تتحدث عن الأطفال... أطفالنا"...
وتصلبت عيناه وهما تتفرسان وجهها الذي ينطق بالتأنيب. وقال:
"أنا آسف لأن كارا ضايقتك، ولكنها طفلة، ولذلك فهي تقول ما في قلبها، يجب ألا تأخذي كلامها على محمل الجد".
"هل يمكن أن تقترح أن أطبق نصيحتك على بقية الموقف؟ هذا الادعاء بأننا عروسان سعيدان، ولا وجود للحب في أفق حياتنا".
"اليونانيون لا يفصحون عن مشاعرهم علانية، وسيكدر أقاربي أكثر مما يسعدهم، اذا أظهرت عواطفك نحوي علانية، اذا كنت تحملين لي أية عواطف"!
"مما يريحني أن أعرف أنني لست مضطرة الى تمثيل

دور العروس السعيدة وأطلقت دومني ضحكة صغيرة، واستطردت قائلة:
"أنا لا أجيد التظاهر ولا الادعاء، حتى عندما كنت طفلة لو أخبرني أحد بوجود مارد في الغابة... لصدقته".
وترك سيكاره ببطء وابتسم من خلال الدخان قائلا:
"وماذا عن ذلك الحيوان الذي يشبه الحصان وله قرن ثور يادومني؟ هل تذكرين ذلك التمثال الصغير الذي اشتريته لي بكل ما معك من نقود... وامسكته بيدك كطفلة وأنت تهرعين الي"؟
قالت دومني ببرود:
"أوه... كنت بالفعل طفلة... مجنونة صغيرة غنت عدة ساعات مثل... مثل طائر أعمى".
وذابت الابتسامة على شفتيه، وقال:
"تعلمت يادومني كيف تكونين قاسية".
قالت وهي تسحب من أحد الأدراج بعض ملابسها الداخلية، وتخرج من الدولاب ثوباً طويلا:
"لدي أفضل مدرس... أنت يابول".
وذهبت الى الحمام، وحينما كانت تغلق الباب، شعرت بالزهو لأنها آلمته، ذلك الحيوان الخيالي! كان موضوعا على مكتبه في تلك الغرفة في بيته وكأن بول كان يختزن احساسا بالسعادة لما يرمز اليه هذا الحيوان من اذعانها... اذعانها الكامل له... ولكن ذلك لن يحدث أبدا مرة أخرى... كانت تعني ما قالته له في الفيلا أنه يستطيع بكل ترحيب أن يستمتع بما اشتراه، ولكن قلبها سيظل ملكها.
ولمحت صورتها في المرآة وهي خارجة من تحت الماء، كانت عيناها عيني انسانة غريبة، وتأملت نفسها وقد لفت حولها منشفة، أين ذهبت دومني ذات الطفلة التي كانت تبحث عن الاشباح في الغابة، وكانت تحلم في السابعة

عشرة بشاب طويل، ذي عينين مرحتين، وشعر أصفر، وأغلقت دومني عينيها لتتحاشى رؤية الفتاة التي في المرآة. الفتاة التي يملكها رجل لا تحبه!
ولم تلبث دومني أن اكتشفت أن اليونانيين يفضلون تناول الطعام في الهواء الطلق، تحت أشعة الشمس. او على ضوء النجوم، وأن وجباتهم المسائية تبدأ في ساعة متأخرة، وأنهم يبطئون فيها، ويتحدثون عن أشياء كثيرة، وغالبا ما ينتصف الليل قبل أن يأووا الى فراشهم. وكانت النجوم تلمع في المساء عندما خرجت دومني مع بول الى الحديقة حيث مدت المائدة المشعشعة. كانت ترتدي ثوب دانتيل بلون المشمش، وأحاط شعرها الأشقر بوجهها في تصفيفة رائعة. وبدا بول في بدلة السهرة الداكنة أكثر طولا بجانبها. وقد جذب ببدلته الداكنة، وسلوكه الغامض الانتباه، وجعل من دومني هدفاً لعيني شابة كانت تقف ممسكة بكأس بجانب نافورة مضاءة. كانت ترتدي ثوبا خوخي اللون وانعكست عليها أضواء النافورة، فأظهرت وجنتيها الشامختين، وعمق عينيها الغامضتين، وغزارة شعرها الأسود حول عنقها، وبخطوات المرأة الواثقة بجاذبيتها المفرطة، تقدمت من بول ودومني فادركت دومني في الحال أن تلك المرأة هي ألكسيس، أرملة لوكاس الذي مات غرقا، وتفحصت ألكسيس دومني بنظرات فاترة وهي تسألها اذا كانت أنديلوس اعجبتها، كانت لغتها الانكليزية سليمة جدا، وكانت لهجتها غاية في النعومة، وقالت:
"أتمنى الا تجدي نفسك معزولة تماما عن كل ما هو متحضر في ذلك البيت الذي يملكه بول".
واستدار بول الى المائدة يسكب كأسين، ولم تكن عمته وأخته قد ظهرتا بعد، وردت دومني بعد أن شكرت بول وهي تأخذ منه كأسها:

"اعتدت الحياة في بيت ريفي"٠

ولم تكن دومني تتوقع أن تحب ألكسيس كثيراً، اذ أحست أنها ستجدها من ذلك النوع الذي يعيش لنفسه فحسب، كان ذلك واضحا عليها كعطرها العنبري النفاذ، الذي كان منتشرا حولها وملحوظا في حركاتها الشبيهة بحركات القطة الفارسية الميالة الى الرفاهية٠ وأطلقت الكسيس ضحكة عالية٠ وقالت:

"ذلك البيت! ألم أقل لك من قبل يابول أنه أشبه بالصومعة"؟

ورشف بول رشفة من كأسه، وقال وهو يواجه عينيها:

"قلت ذلك، ولكنه بني كذلك حتى يمكن أن يجد فيه الرجل مهرباً من المدنية المزعومة"٠

"ولكن دومني امرأة٠٠٠ وواحدة من مثل حلاوتها لابد أن تشعر بالملل مع مرور الوقت وهي منفية في صومعتك المنعزلة٠ أعرف أنني شخصيا كنت سأشعر بذلك"٠

قال بول مبتسما:

"أنت مخلوقة قلقة من بنات المدينة يا ألكسيس٠ ودومني فتاة ريفية، وأرجو أن تجد متعة في همسات البحر وأشجار الصنوبر٠ والسير في الغابات نهارا"٠

وهتفت الكسيس وهي ترمق من فوق حافة كأسها:

"صحيح"؟!

وأحست دومني بشعور عدائي نحو تلك الفتاة لم يسبق لها أن أحست به نحو غيرها، اذ كان واضحا أن ألكسيس لم تكن تعني بأن يكون بيت بول غير ملائم لزوجته لكنها كانت قطة جميلة تنهش في كل شيء، لتستمتع فقط باستعمال مخالبها٠

فردت دومني:

"انني أحب الغابات لانها تذكرني بوطني"٠

وقالت الكسيس بابتسامة لدومني:

"لا تدعي ساحرة الغابة تجذبك بعيدا ياعزيزتي٠٠٠ فقد تضيعين"٠٠٠

وقال بول بجفاء:

"عرفت هذه الغابات منذ كنت صبيا٠٠٠ واذا ضلت دومني طريقها، فسأجدها حالا، وسأعود بها البيت"٠

ومنحته الكسيس ابتسامة ناعسة من خلال أهدابها وهي تقول:

"يالك من شخص محب للسيطرة، يابول"!

ثم نظرت الى دومني وقالت:

"أليس مرعبا لانكليزية أن تتزوج واحداً من يونانيينا المستبدين"؟

وأحست دومني بالتوتر وبقيت بجانب بول، وشعرت بالارتياح عندما حولت الكسيس اهتمامها الى وصول مضيفتهم، واثنين من الخدم يحملان صواني الطعام٠ وظهرت كارا لاهثة الأنفاس في ثوب أخضر، ومعها آلة الماندولين التي وضعتها بعناية على مقعد تحت احدى الأشجار٠

وقالت الكسيس وهي تتشدق بالكلمات:

"هل سنستمع الى الموسيقى أثناء تناولنا الطعام"؟

ورمقتها كارا بنظرة غجرية متحفزة، وقالت:

"دومني ترغب في سماع الموسيقى اليونانية، هل عندك مانع"؟

وحولت الكسيس عينيها نحو الفتاة وقالت:

"ومن أكون في هذا البيت حتى أمنع شيئا"؟

ثم حملقت فيها وهتفت:

"أحمر شفاه يا كارا؟ هل وضعته من أجل نيكوس؟ آه٠٠٠ ها هو قادم٠٠٠ نيكي، ابنة خالك الصغيرة وضعت أحمر شفاه تكريما لك"!

وكان نيكوس شابا وسيماً لطيفاً، وفي طريقه الى بول، شد شعر كارا بدون رقة٠ وأحست دومني بمدى زهو أمه الارملة به، كما أحست أيضا أن الصغيرة كارا متعلقة بـه وان لـم

تكن تشعر بذلك تماما، ذلك أن وجهها احتقن بشدة لملاحظة الكسيس، ومسحت أحمر الشفاه في سرعة بمنديلها.

وجلس نيكوس بجوار دومني على المائدة، وساعدها حديثه الودي على الاسترخاء والاستمتاع بأطباق الطعام اليونانية، وانطلق نيكوس بابتسامته المرحة يشيع جوا من البهجة أثناء تناول الطعام، فكان يقدم النخب في صحة العروسين وهو يردد قولا مأثورا: الزيت من الكريم، والخل من البخيل والنخب من الأبله! وباختلاس نظرة نحو بول، تبينت دومني أن نيكوس يشبه صورته في شبابه وهو بملابس المقاتل الفدائي، وأحست أنه منذ ذلك الحين، تدخل الشيطان، وأحال الشاب المثالي الى رجل قاس، وتساءلت اذا كان أحد الموجودين حول المائدة يشك في ذلك، أم أنهم كانوا يعرفون ويتقبلون الأمر باعتباره طبيعة الرجل اليوناني الناضج؟

وقال نيكوس:

"لابد أن أنديلوس تبدو غريبة بعد انكلترا، وأنك تشعرين حتما انك بعيدة جدا عن وطنك"!!

وردت دومني:

"أجل انكلترا تبدو بعيدة جدا".

وغمز نيكوس بعينه عبر المائدة لكارا وقال:

"اذن يجب أن نبذل أنا وكارا قصارى جهدنا لنعاونك على الاحساس بأنك في وطنك"...

وابتسمت دومني للشاب الذي ضحك بصوت مرتفع وقال:

"بول... يجب أن تحافظ جيدا على اقحوانتك البيضاء هذه، والا سرقتها منك، هل توجد لها مثيلات كثيرات في انكلترا"؟

ابتسم بول قائلا:

"تستطيع ان تذهب الى هناك في مهمة، وحينئذ سترى بنفسك لكنني لا أظن انك ستجد أخرى مثل دومني تماما".

وضرب نيكوس بيده على المائدة زهوا فانبته أمه

على تصرفه الذي اهتزت له الأطباق وأدوات المائدة، وقالت:

"اذا تصرفت كصبي، فسيعتقد بول أنك غير لائق بعد لمركز هام في العمل".

وقال بول بتؤدة:

"نيكوس في حالة معنوية طيبة صوفيولا، وأنا استمتع بسماع الخيالات التي يمتلىء بها الشباب".

واهتزت أهداب الكسيس الطويلة فوق وجنتيها بينما كانت النظرة التي رمقت بها بول تخفي ضحكا غامضا وهي تقول:

"انك لم تصل بعد الى الشيخوخة يابول، ان لك خيالاتك أيضا"..

وتقلصت أصابع دومني حول كأسها، ذلك أنها أحست أن الكسيس بما لها من حاسة القطة، تبينت أن بول تزوجها عن جموح خيالي وليس عن عاطفة، بول... شقيق الزوج... الفني... الجذاب... الذي لابد أن تكون الكسيس نفسها قد حركت خياله.

وقالت كارا حالمة:

"أنا أحب كل تلك الحكايات الخيالية والخرافية، ان بيت بول يبدو لي دائما ذا طابع أسطوري وهو يقع شامخا فوق صخرة النسر المطلة على البحر".

وقال نيكوس مازحا في مودة:

"وهل تتصورين دومني الأميرة الأسيرة"؟

واتكأت كارا على المائدة، واسندت ذقنها الى يدها، وابتسمت قائلة:

"بل ان دومني تشبه البجعة المسحورة التي خلعت رداءها لتستحم كفتاة، والتي اضطرت لان تتزوج الرجل الذي سرق رداءها البجعي".

ورمقت العمة صوفيولا ابنة أخيها بنظرة حادة، وصاحت:

"عم تتكلمين أيتها الطفلة؟ هل ترى يابول؟ انها تعيش

في عالم وهمي:

وأفرغ بول ما في كأسه وقال:

"كارا في السادسة عشرة... طفلة".

ولكن دومني لمحت بريق الغضب في عينيه، كانت أخته غير الشقيقة الوحيدة التي تملك كل عواطفه، وتساءلت دومني اذا كان يجب أن تعيش معهما. كان من الواضح ان كارا ليست سعيدة في حضانة عمتها، ذلك أن نيكوس كان يظهر لها من الاهتمام المختفي وراء مزاحه معها أكثر مما كانت أمه تحب، بالاضافة الى وجود الكسيس، التي لم يكن مزاحها في رقة مزاج الشاب او براءته.

وقررت دومني ان تقترح على بول دعوة كارا لقضاء بعض الوقت معهما، واقامتها كان يمكن أن تمتد لتصبح دائمة، اذا وجدتها اقامة سعيدة، وكانت دومني متأكدة من ذلك، اذ كانت كارا متدفقة الحيوية، وموسيقية، وكان بيت بول بحاجة الى قفزات الشباب في أرجائه، والى ضحكات تعيد النبض اليه، ذلك النبض الذي خلا منه خلال السنوات القليلة الفائتة.

وأفاقت دومني من شرودها عند ذلك الحد، لتجد الكسيس تحملق فيها وابتسامة صغيرة على شفتيها، ثم تحول بصرها ناحية بول، ولمحتها دومني تزم فمها الأحمر وهي تقيس بعينيها عرض كتفيه، ثم ترتفع بهما الى الشفتين المطبوعتين بالتصميم، وبالحدة، وبالرغبة.

وعندما نهض الجميع من حول المائدة، لتناول القهوة على المقاعد المرصوصة تحت الأشجار، أحست دومني بأن الكسيس تراقبها وبول يحيط كتفيها بوشاح من الدانتيل، وينزع من شعرها حشرة صغيرة استقرت فيه ورغم أنها كانت لمسة خفيفة، لكنها كانت تنطق بالتملك ليشهدها الجميع... تملكها من شعرها الأشقر، حتى قدميها الصغيرتين في

الحذاء الفضي... هي الانكليزية الباردة الرقيقة... كانت ملكا للزوج اليوناني المستبد.

وتوترت الكسيس اذ رأت بول يوجه دومني الى المقاعد الأكثر انعزالا.

٩ - شال الياسمين

سبق لدومني ان استمعت الى الموسيقى اليونانية القديمة في أثينا، لكنها تبينت أنها لم تكن شيئا يذكر بالمقارنة مع سحر الأنغام التي عزفتها كارا. وكانت كارا تغني بنعومة تارة باليونانية، وأخرى بالانكليزية. وسرت رجفة في أعماق دومني مع نهاية كلمات الأغنية الحزينة.

"لا أستطيع أن أموت إلا اذا كنت بجانبي أيها الوجه الروحاني، أيها الملاك، مع آخر أنفاسي قبلني حتى الموت".

وأحاط بول كتفي دومني بذراعه في قوة وسألها:

"هل تشعرين بالبرد"؟

فهمست وهي تشعر كأن اصبع القدر تسللت خلال ظلمة الليل لتسرع من خفقان قلبها تحت يد بول:

"كلا، أنها الموسيقى، وتلك الأغنية الصغيرة الحزينة".

وقفزت الكسيس واقفة على قدميها وقطعت روعة الغناء قائلة وبريق غريب في عينيها:

"دعونا نذهب جميعا الى ملهى "القناع الفينيسي" لنرقص... سيكون ذلك أكثر بهجة من الجلوس هنا والاستماع الى موسيقى كارا الحزينة، لابد أن آل "فانهوزن" هناك وربما يكون باري سوتيرن انضم اليهم، انه يحب الرقص".

وقال نيكوس بتكاسل وهو يمد ساقيه الطويلتين فوق سور الحديقة:

"أنت نشطة أكثر من اللازم يا الكسيس، ولكني أحب الموسيقى التي تعزفها كارا".

عادت الكسيس تقول بنفاذ صبر.

"أوه، هيا بنا، سيكون لدينا متسع من الوقت للجلوس وسماع الموسيقى عندما نكبر، الآن أفضل الرقص، وفرقة الموسيقى في الملهى جيدة للغاية".

وقالت دومني وقد خفق قلبها لدى سماعها من الكسيس أن باري ربما يكون قد ذهب الملهى:

"انا أفضل الذهاب"...

وقال بول مرغما:

"حسناً سنذهب اذا لم تكوني متعبة".

وبمرح انفلتت دومني من بين ذراعيه وهي تقول:

"وهل يمكن أن يصاب الانسان بالتعب في اليونان"؟

ثم ذهبت مع الفتاتين لأعادة تنظيم شعرها، ولاحضار وشاح، بينما رفضت العمة صوفيولا الانضمام الى المجموعة، معلنة أنها تخطت عمر الذهاب الى الرقص. وضحك نيكوس قائلا:

"نراك في الصباح"!

ثم انحنى وقبل وجنتها، فأمسكت بكتفيه لحظة، ونظرت اليه بشغف، ثم تركته يذهب، دافعاً بابنة خاله داخل سيارة ذات سقف منخفض وكانت ألكسيس على وشك الدخول في سيارة بول، لكن نيكوس أمسكها من خصرها. وقال مازحا:

"ستركبين معنا، مازال بول ودومني في مرحلة الرغبة في الانفراد".

قالت الكسيس متجمدة وهي تشير الى سيارته:

"سنتحطم في هذه الحشرة".

ودفعها نيكوس وهو يقول:
"تفضلي ياسيدتي".
واستدار ليلقي بابتسامة الى بول قائلا:
"سنسير أمامك يا ابن الخال، النجوم منخفضة الليلة حتى يمكنك تقبيلها".
وقالت دومني وبول يوجه السيارة في اتجاه الميناء:
"انها جميلة، هذه النجوم، لم أكن أعرف أن النجوم يمكن أن تظهر ضخمة هكذا، أستطيع أن أخطف واحدة لنفسي".
وسأل بول:
"هل تعتقدين انك ستحبين الحياة في الجزيرة"؟
واستنشقت دومني عبير الأزهار النامية فوق الهضاب، ولم تستطع أن تنكر تجاوبها مع سحر أنديلوس الأسطوري، وقالت مبتسمة:
"أجل يابول، الجزيرة ساحرة، مكان مناسب للنسور والأفاعي".
وقالت وأصابعها تداعب حقيبة يدها:
"فكرت يابول أنه سيكون لطيفا اذا أقامت كارا معنا فترة، أنا على ثقة بأنها ستسر بذلك، انها متعلقة بك للغاية، ثم انني أجدها شخصية ممتعة".
ولم يرد لمدة دقائق، ثم قال:
"أعرف انك تحبين كارا، ولكني أعتقد أن دافعك هو خوفك أن تكوني وحدك معي".
قالت وهي تشعر بنظراته مصوبة نحوها:
"انك لم تفكر في أن تجعلني أسيرتك".
وكانت تجلس بجانبه تماما، ووشاحها حول كتفيها، وقد تدلى من أذنيها القرط ذو القلب اللؤلؤي الذي أهداه لها. وقال بول برقة:
"هل من الضروري أن تتحدثي بهذه الطريقة المأساوية

يا حبيبتي"؟
واحتقن وجهها غضباً وهي تقول:
"لك أن تتظاهر أمام الآخرين بانك الزوج المغرم يابول، ولكن لا تفعل ذلك عندما نكون بمفردنا، دعنا على الأقل نكون صادقين في أن وجهي وجسمي هما كل ما تريد، أما الانسانة داخل هذا الجسم فلا تهمك أبدا، انني أشك أنك تعرف شيئا عن تلك الانسانة، ما اذا كانت عندما تزوجتك تهتم بآخر أم لا، انك لم تفكر ابدا في أن تسأل، هل فكرت يابول؟ شيء لا يهمك ما دمت قد حصلت على ما تريد".
واقتربت السيارة من الميناء، وعلى بعد حوالي نصف ميل كان يقف يخت تنبعث منه أصوات الموسيقى والضحكات، وبهدوء سأل بول:
"هل كنت مهتمة بشخص آخر"؟
وتفحصت دومني جانب وجهه، كان في كمال الفن الاغريقي، ولكنه أيضا كان باردا وجامدا كالرخام الذي نحت منه الاغريق تماثيلهم. وكم تلهفت أن تعلن بأنها كانت تهتم برجل آخر. وانها لم تكف عن الاهتمام به، وأنها منحته كل العواطف التي لن تستطيع أبدا أن تمنحها سواه.
ولكنها حتى في انفعالها وغضبها.. كان لخوفها من بول اليد العليا، واستدارت جانبا لتقول ببرود:
"وما الذي يمكن أن يعنيك في ذلك؟ ما كنت لتهتم بمشاعري، انك مخلوق من حجر".
قال ببطء:
"ليس تماما، الرجل المخلوق من حجر لا يحركه وجه أو جسم، ولا يجرحه برودهما".
وارتجفت .. كأنه لمسها بكلماته. وأحكمت وضع الوشاح فما الذي يتوقعه بول؟ ليس الحب بكل تأكيد، من امرأة منحته نفسها لتنقذ أسرتها من الفضيحة، كلا، انه لا يتوقع

منها العاطفة، ولكن حدث ذات ليلة في أثينا أنها تيقنت أن بول يعيش منطوياً معزولا عن الناس، وأنه يعاني وحدة غريبة، كان في السادسة والثلاثين من عمره، ولكنه كان يبدو أحيانا أكبر من تلك السن بكثير٠

وعاودت دومني أحداث تلك الليلة بوضوح، كانا قد أمضيا اليوم كله في السباق، حيث بدأ يعاني الصداع وتأثرت هي لمعاناته، وتعجلته العودة الى الفندق، حيث تناولا عشاءهما في شرفة جناحهما، ورغم أنهما لم يتحدثا الا قليلا، ولكن شيئاً من الالفة كان يقربهما، وعندما ذهب الى غرفته، وبقيت هي وحدها في غرفتها، سمعته يذرع الغرفة ذهاباً واياباً لاكثر من ساعة٠٠٠ ذهاباً واياباً٠٠٠ مثل نمر في قفصه، بينما بقيت هي في فراشها قلقة تتساءل اذا كان ضميره هو الذي يؤرقه، وتسربت حلقات دخان سيكاره الى غرفتها٠ ومرة أو اكثر همت بالنهوض لتذهب اليه، وكانت يدها على الغطاء، وعلى وشك أن تقذف به، عندما انقطع صوت خطواته، وسمعته يأوي الى فراشه٠ وتبينت من الخطوط العميقة على صفحة وجهه صباح اليوم التالي، انه لم يقدر على النوم وبخشونة عانقها في ثوبها الحريري، وسحق السؤال المهذب عن فمها٠ وضحك بدون مزاج قائلا:

"اذن سمعتني وأنا أذرع الغرفة"٠

ومن جديد انتزع عنوة ما لم يكن من الممكن أن تمنحه اياه برضاها٠ والآن٠٠٠ والسيارة في طريقها الى الملهى، التفت بول ليواجهها وقد أسند مرفقه الى عجلة القيادة، وقال:

"يمكنك أن تأخذي كارا للاقامة معنا، اذا كنت تحبين ذلك، ولكن ستحزن الفتاة لو علمت أننا نتقاسم شهر عسل مر"٠

واهتزت دومني للطريقة التي تكلم بها٠ وقالت محتدة:

"الم العب دوري بتعقل حتى الآن؟ انني أحب لكارا أن تقيم معنا ليس لمصلحتي فحسب، ولكن لانني أشعر أنها

ليست سعيدة في بيت عمتك، لابد أنك تشعر بذلك يابول"٠

وهز رأسه قائلا:

"منذ ترملت عمتي، أصبحت متعلقة للغاية بنيكوس٠٠٠ ومن الأفضل لكارا أن تعيش معنا، من قبل كنت غالبا ما أتغيب عن الجزيرة، ولذلك كان بيتي موحشاً لها، الآن تغيرت الأمور، الآن لي زوجة، أجل، لكل الاعتبارات، أدعو كارا للاقامة معنا"٠

قالت دومني بهدوء:

"انها تحبك يابول، ولن افعل شيئا يمكن أن يدمر ذلك الحب فانا لست منتقمة"٠

وربت على شعرها، وبدا فمه خلال لحظة رقيقا وهو يقول:

"آه، كلا، أنت حساسة الى حد التطرف، ولذلك تجدين من الصعوبة أن تفهميني، ربما بمرور الوقت ستفهمينني"٠

وداعبت أنوار الملهى وجه دومني وهي جالسة في السيارة، وخفق قلبها، نصف هذا الخفقان كان تهيبا، ونصفه الآخر كان شوقا مستترا لأن تجد باري في الملهى، ولأن يرقصا معا٠ ونزلت من السيارة، وسمعت خلفها صفقة الباب القوية، ثم أحست بيد بول على مرفقها وهما يصعدان سلم الملهى، وفي الداخل قدمت له فتاة قناعا أسود، وقدمت لدومني قناعا ذهبياً٠ وأطلقت دومني ضحكة منفعلة وهي تضع قناعها، وقالت:

"أحس في هذا القناع كأنني فتاة من القرن السادس عشر"٠

ولمحت بريق النمر في عيني بول من خلال القناع الأسود، وافتر ثغره عن ابتسامة وهو يسير معها داخل الملهى، حيث كان البعض يرقص "الفالس"، والبعض الآخر جالساً في خلوة يتحدث، وتلفتت دومني حولها، وقد انفرجت شفتاها، واحتبست أنفاسها في حلقها عندما رأت شخصاً طويلا، عريض الكتفين، يشق طريقه خلال الراقصين، كان قناعه

قرمزيا، وكان من المحتم أن تعرفه في أي مكان، وسط الزحام، بسبب رأسه الذي يشبه رأس الأسد.
وحياهما. ثم سأل بول:
"هل تسمح لي بأن أرقص مع زوجتك، ياسيد ستيفانوس"؟
ورد بول بفتور بالموافقة، وهو ينسحب، بينما كان باري يسحب دومني داخل حلبة الرقص وقالت دومني لنفسها أنه الدخان الذي أغشى عينيها. عندما تلاشت سنوات البعاد، وتحركت هي من جديد على أصوات الموسيقى مع باري. ولمدة لحظات ظلا يرقصان بدون كلام. وهما يدوران كما لو كانا وسط السحاب، وأخيرا همس باسمها، وقال:
"دومني... لقد أوشك قلبي أن يكف عن النبض عندما ظهرت في الشرفة عصر اليوم. كارا أخبرتني أن أخاها تزوج فتاة تدعى دومني. ولكني لم أصدق، لم أكن أريد أن أصدق انها أنت... ليست دومني التي تخصني".
وامتلأت عيناها بالدموع وهو يتكلم، وتعثرت، فأعانها باري. وأرعبها ذلك، اذ كان بول يتحدث مع الكسيس وكانت توجد مرآة خلف البار تعكس حلبة الرقص بمن فيها من الراقصين وابتعدت بسرعة عن باري، وهمست وقد تحولت فرحتها بوجودها معه الى خوف:
"يجب أن نأخذ حذرنا".
واندست أصابعه في خصرها وهو يقول:
"لكني يجب أن أتحدث معك على انفراد".
وتغلغلت عيناه في عينيها، وبدا فمه خطيرا - أرادت أن تضع يدها على شفتيه، أن تجهض الكلمات، ولكنه عاد يقول بنبرات صادرة من أعماقه:
"اني أحبك يادومني لم أكف أبدا عن حبك".
أجابت:
"انني متزوجة يا باري، وهذا، وهذا الحديث عن الحب

يجب أن ينقطع".
قال بخطورة:
"وأنا أريد أن أصرخ به... وسأفعل اذا لم تخرجي معي الى الحديقة، لتخبريني لماذا تزوجت رجلا لا تحبينه".
قالت لاهثة:
"كيف... كيف عرفت"؟
وبدأت تحس بالدوار من الرقص، ومن استمرار بقائها مع رجل آخر غير بول، ونظرت الى زوجها من فوق كتف باري، كان جالساً مع الكسيس.. وكان يبدو مستغرقاً معها في الأحاديث، حين كانت عيناها مسمرتين على وجهه من خلال القناع.
وقال باري يتعجلها:
"دعينا ننسحب الآن... ان زوجك منهمك مع ألكسيس ذات الاغراء"...
"قالت بخوف.. لا يجب أن أفعل ذلك".
ورغم ذلك كانت بحاجة شديدة لأن تتكلم مع باري على انفراد. ولكن بدا لها ذلك مستحيلا، في ذلك الملهى، وكفت الموسيقى، وبدأت حركة جلوس الراقصين عندما أعلن أن البرنامج سيبدأ، وخبت الأضواء مرة أخرى، وبدأ عزف موسيقى ناعمة، وخرجت من بين الستائر راقصة رشيقة، وتقدمت نحو منتصف القاعة، حيث تركزت حولها الأضواء فبدت أشبه بفراشة كبيرة مشتعلة.
ووقفت دومني في الظل بجانب باري، وقلبها يخفق بشدة لقربه، بينما رفعت الراقصة يديها السمراوين فوق رأسها وأخذت تدق بأصابعها على الصاجات، وأسرعت الموسيقى، وبدأت ترقص وكانت دقات الصاجات أشبه بصوت قواقع البحر تقرع بعضها بعضا، وتمايلت الراقصة الى الأمام، والى الخلف، حتى لمس شعرها الأسود الطويل

الأرض... واستحوذت على الانتباه وتمكن شخصان أن يتحركا الى الخلف في الظلال من الأبواب الزجاجية على الحديقة... وكان الرجل يتعجل المرأة بيدين من الصعب اغفالهما.

وقال باري ضاحكا وهو يمسك بدومني:

"تعالي هنا بين الأشجار... في ظلالها ووسط شذاها"...

وارتجفت من كلماته... ومن لمساته وقالت:

"لا تفعل... سأعود ثانية الى الداخل عندما تسكت الموسيقى".

قال بصوت غاضب، وغيور:

"هل أنت خائفة من زوجك"؟

"كلا... ليس ذلك تماماً".

"ماذا اذاً؟ جاذبيته المستبدة؟ هل هذا ما لم تستطيعي مقاومته"؟

وأمسكها من كتفيها بقوة وعاد يقول:

"يجب أن أعرف لماذا تزوجت بول ستيفانوس، لماذا يا دومني، في حين كان مفهوما بيننا، بدون كلمات، أننا في يوم ما سنتزوج"؟

"في يوم ما يا باري؟ لقد رحلت، ولم تكتب أبدا، إعتقدت انك نسيتني".

"ليس هذا صحيحا، لقد تعاهدنا على الانتظار في تلك الأمسية التي سبقت رحيلي، وأنت تعرفين أني كنت أعني ما أقول عندما أخبرتك أني سأعود اليك، كنت صغيرة يا دومني، وكنت شديدة الاعتداد بحريتك، وكنت أريد أن أفعل الكثير بحريتي قبل أن أتزوج، كنت أريد أن أحقق في لوحاتي ما فعله رجال مثل "رودان" في الحجر كنت بحاجة الى الوحدة المطلقة أثناء عملي".

وسألته وهي تنظر في وجهه القريب منها:

"وهل نجحت يا باري"؟

قال وأصابعه تداعب خدها:

"ذهبت الى أماكن عديدة، وهنا في اليونان وجدت الضياء باهراً حتى أنني لم أستطع التوقف عن الرسم".

وساد بينهما صمت لم يقطعه سوى صوت الموسيقى المصاحبة للراقصة:

وقال باري:

"قدامى الاغريق كانوا دائما يصطادون العصافير في شباك، وكانوا أيضا يعشقون مذاق العسل المر".

"هل هذا هو تعريفك لزواجي"؟

"لست سعيدة مع الرجل... أعرف ذلك... رأيت عينيك... وأعرف كيف تبرق زرقتهما عندما تكونين سعيدة".

"السعادة ليست كل شيء في الحياة ياباري".

ورفع ذقنها. وقال بخشونة:

"الدموع جعلتك أجمل مما أتذكرك، ما الذي بينك وبين هذا اليوناني؟ حب أم كراهية"؟

"كل ما أستطيع أن أجيبك به أنه يقف بيني وبينك يا باري، انني ملكه، انه زوجي".

"وهل عرفت معه لحظة سعادة منذ أصبح زوجك"؟

"أجل، آه... تبدو مصدوما ياباري كما لو كان ذلك أمرا مستحيلا ولكنه ليس وحشاً"...

وأغمضت عينيها وقالت وقد عاودها القلق:

"يجب أن ندخل... الموسيقى توقفت، والناس تصفق".

وحاولت أن تتخلص منه ذلك أن كل همسة، كل ظل، كل ثانية كانت تقضيها في الحديقة معه، كانت تضاعف من توترها ثم قالت:

"ستحضر الحفلة مساء غد وسنرى بعضنا البعض وسنرقص معا".

قال وأنفاسه في وجهها:

"دومني... أيتها الصغيرة الحمقاء... أنا وأنت لا يمكن

أن نكون مجرد صديقين أبدا، خلقنا لنكون متقاربين أكثر من ذلك".

قالت بيأس:

"ما كان، لم يعد له وجود الآن. ألا تستطيع أن تدرك ذلك"؟

"قال باصرار: كلا، كوني ناضجة يادومني، اذا اعتقدت"...

قاطعته قائلة:

"واذا اعتقدت أنت، أنني يمكن أن أعيش في عالم من الأحلام، وأتظاهر بأنه لا وجود لبول... فأنت مخطىء للغاية".

وبعينين عاصفتين التقت بعينيه وهي تقول:

"انه يوناني... ومستبد للغاية... وما من شيء يمكن أن يلغي حقيقة كوني تزوجته".

تكلم باري بعصبية قائلا:

"أنت ملكه؟ لقد عرفت ماذا يعني ذلك لي"...

قالت مغلوبة على أمرها:

"انني أنتمي اليه... هذه حقيقة".

ورفع وجهها اليه، وتأمل القناع الذهبي، وقال:

"أجل... انه صاحب حق... ولكني أملك شيئا آخر".

سألت مرتجفة:

"ماذا تملك"؟

"أملك قلبك يا دومني، أنا متأكد من ذلك".

وتجمد كل شيء حينما نطق بذلك، حتى الأشجار والثمار بدت كأنها توقفت عن الحركة لتصغي الى لحظة حلوة، خطيرة، تجمعت خلالها الذكريات، ووعود الشباب، وأحلام الحرية، وأحست دومني بلمسات اليدين التي اعتادتها، واغرورقت عيناها بالدموع، وأحست برغبة عارمة في أن تفضي لباري بكل شيء، وأن تقول له: "خذني بعيدا... توجد مراكب في الميناء للايجار... ونستطيع أن نكون في

الصباح على بعد أميال... خذني بعيدا ياباري... وسنعود الشابين المنطلقين كما كنا من قبل".

وارتفع صوت باري يقول:

"لماذا تزوجته يادومني؟ أعرف أنه وسيم وأنه يملك. ولكن شيئا من ذلك لا يمكن أن يكون دافعك الا اذا كنت أحببته، أخبريني يادومني".

"انا... أنا لا أستطيع أن أخبرك... السبب يتعلق بشخص آخر".

"رجل"؟

"أجل".

"ماذا حدث لك يادومني؟ ما الذي غير الفتاة المرحة الجميلة التي أحببت"؟

وهزت رأسها بدون كلام... ثم انفلتت، وأسرعت بدخول الملهى، وكانت بعض وريقات نبات ياسمين العسل قد علقت بشعرها. فأخذت تنفضها، ولكنها لم تكن تعرف أنها علقت أيضا بوشاحها.

ووجدت الناس ترقص من جديد. تفرست في الراقصين: اثنان منهما جعلا الباقين يظهرون متوسطي القامة، بول مبتسما، والكسيس معه. ثم أحست بيد على ذراعها، والتفتت لتلتقي بعيني كارا اللتين كانتا تتفحصان شعرها ووجهها، ثم مدت كارا يدها ونفضت لها وشاحها وثوبها، وابتسمت قائلة:

"هجرني نيكي ليرقص مع سوزي فانهوزن، وبول يرقص مع الكسيس ولكن لا تهتمي".

ردت دومني:

"أنا لا أهتم".

ثم لمحت وجه كارا المقنع يعبس، بينما اتجهت عيناها ناحية الباب الزجاجي الذي دلف منه باري سوتيرن. ونظر الى دومني وكارا.

ورغم أنه هو ودومني كانا مقتنعين أحست هي أن كارا الواقفة بجانبها رفعت عنها القناعين. وبطرف الحذاء أخذت كارا تدوس الوريقات التي نفضتها عن ثوب دومني، لقد عرفت أن زوجة أخيها وباري كانا معا في الحديقة، ولكن ليس كغريبين كما كانا يتظاهران.

١٠ - الكهف الذي سقط

لم يعمل بول طوال الاسبوع الأول، وأمضيا أيامهما على الشاطىء المنعزل تحت التلة، وسط مياه البحر الزرقاء. وكانا يسبحان ويبحران في زورق صغير، وبدا لدومني خلال هذه الأيام والليالي التي قضتها وحدها مع بول، أنه يرمي الى محو كل ذكرى تقاسمتها مع باري او مع سواه وذلك بعدما اعطاها باري احدى لوحاته فقامت بكل براعة تهديها الى بول. وما هي سوى دقائق حتى علم بول انها عرفت باري في انكلترا عندما كان شابين وانها احبته حباً عذرياً في ذلك الوقت.

وعلى الجانب الآخر من المركب، جلست تراقب بول، بكتفيه العريضتين، وشعره الأسود المجعد، وأحست بلهيب في داخلها وقفزت لتسبح حتى الشاطىء، وأخذت تمسح المياه عن عينيها، ثم رفعت يدها لتعصر شعرها وهي تجري فوق الرمال في اتجاه ظل الكهف حيث تركا سلة الطعام بعيدا عن لفحات الشمس.

ولحق بها بول، وأقبل من الشاطىء في اتجاهها، ومن خلال أهدابها راقبته في ملابس البحر. ووجدها تقطع شرائح البطيخ الاصفر المثلج، فقال وهو يجلس بجانبها، ويأخذ شريحة:

"اني مستعد لذلك"!

وانهمكت أسنانه البيضاء في أكل الفاكهة الذهبية، بينما كانت دومني تأكل شريحتها وقد دفنت قدميها العاريتين في الرمال.

واستقر نسر فوق التلال وقد فرد جناحيه، ووضع بول شريحة البطيخ جانباً، حتى يتسنى له أن يراقب طيران الطائر الكبير واتسعت ابتسامته وهو يتأمل جناحي النسر، وقال:

"رائع... تماما مثل ما جاء في المثل... هل تعرفينه يادومني"؟

وهزت رأسها بالنفي، وكانت تفكر في أنه متوحش، وعنيف، تماما مثل النسر الذي يبحث عن فريسته.

وابتسم بول قائلا:

"المثل يعدد عددا من العجائب... من بينها نسر في الجو... وسفينة وسط البحر... ورجل مع فتاته".

"ياله من أمر ظريف... هل لك في فطيرة باللحم"؟

وانحنت امامه لتصل الى سلة الطعام... وامتدت يده الى خصرها وهو يقول:

"أجل، اطعمي الوحش، فينام لمدة ساعة، ويمكنك أن تستمتعي برؤية الأسماك الملونة، والبحث عن الاعشاب المرجانية".

واحتقن وجهها للسخرية في صوته، وناولته فطيرة باللحم مع علبة الزبدة وبعض شرائح البندورة واتكأ على مرفقه، وانطلق يأكل وهو ينظر للبحر. وسكبت دومني القهوة وأضافت اليها العسل البري الذي كان بول يحبه، وأخذ الفنجان، ورفعه نحوها قائلا باليونانية:

"في صحتك".

وردت على تحيته بالانكليزية ثم أشاحت عنه بوجهها وهي تشرب القهوة، وتأكل غذائها. كانت صحتها تهمه لأمر

واحد فقط، كانت تعتقد أنه يريد منها أن تمنحه طفلا.

وما كادا ينتهيان من طعامهما، حتى أغلقت سلة الطعام، وتركته لتلهو في حوض وسط الصخور، حيث كانت الأسماك الصغيرة تقفز بين أصابعها، وتمدد بول غير بعيد عنها فوق الرمال، ظهره للشمس ووجهه بين ذراعيه المعقودتين، ولم تكن تدري ما اذا كان مسترخيا ليأخذ غفوة حقا، أم أنه كان خداع النمر الذي يفكر في مكيدة لفريسته.

وأخذت دومني تعبث بحبات الرمال. وهي تفكر في الطريقة التي طوح بها بول بلوحة باري قائلا:

"انا لا أهتم بوجودها في بيتي... يجب أن تفكري ياعزيزتي في شيء آخر هدية لي".

وفي الليلة الماضية، من شدة غضبها منه، أرضت نفسها باغلاق باب غرفتها في وجهه، وتمددت متوترة، تتنصت الى صوت حركاته في الغرفة المجاورة، ولكنه لم يحاول أن يعالج بابها. وانتهى بها الأمر أخيرا الى الاستغراق في النوم، ولم تستيقظ الا على صوت ليتا وهي تفتح الستائر.

ولم تكن ليتا بالمرأة التي تبتسم كثيرا، ولكن ابتسامة تألقت بفمها وهي تتأمل دومني وقد افترش شعرها العسلي الغزير الوسادة. وبدا لون جلدها العسلي الشاحب منسجما في تناقضه مع لون قميص نومها الأزرق. وجلست دومني في سريرها، وقالت وهي تراقب ليتا تسكب لها شاي الصباح:

"كم تبدو الشمس رائعة"!

"هذه هي اجمل أيام الجزيرة طقساً ياسيدتي... العنب ينضج ويعمق لونه والجبال تمتلىء بالمواشي وبالاغنام".

وسألت دومني وهي ترشف الشاي الساخن:

"هل ولدت في الجزيرة ياليتا"؟

"انني من الجبال يا سيدتي، مكان قطاع الطريق في الماضي، والأساطير الخرافية، تعرفين طبعا أن الدماء الرومانية

تسري في عروقي"؟

وأومأت دومني وهي مأخوذة بعض الشيء بما كان يبدو على ليتا من معرفتها للاشياء الخفية في الحياة، وقالت ليتا:

"لقد اعتدي على الجزيرة خلال الحرب ياسيدتي عندما كنت صبية، وأحرقت المزارع، ونهبت غابات الزيتون، وأخذت الفتيات أسيرات".

وشعرت دومني برجفة وهي تحدق في خادمتها، وأضافت ليتا بسرعة:

"كنت محظوظة، اذ خبأ جدي كل أفراد الأسرة في كهف وسط الجبال، بينما حارب أبي واخوتي، ولم يكن ذلك آخر ما عانته اليونان، فقد قامت حركة التمرد، ومن جديد المتاعب والمعاناة والسلب والنهب".

قالت دومني برقة:

"لابد انها كانت مرحلة حزينة ومفزعة لكم جميعا".

ابتسمت ليتا بطريقتها الجادة وقالت:

"ولكنها انتهت. والآن هنا في الجزيرة يجد الناس السلام والعمل، والطعام الكافي".

وتناولت دومني بعض الحلوى، ثم ضحكت قائلة:

"بدأت أحب ألوان الطعام اليوناني ياليتا. جو جزيرتكم يفتح الشهية".

ورمقت ليتا سيدتها بنظرة متفحصة، ثم التقطت فنجان الشاي الفارغ ونظرت فيه فقالت دومني:

"هل ترين فيه أن أمامي يوما سعيدا"؟

وارتجفت أهداب دومني وهي تلقي نظرة سريعة على الباب المغلق بينها وبين بول، بينما قالت ليتا وهي تتمعن في أوراق الشاي:

"سيحدث شيء مزعج. أرى ذلك بوضوح".

"عاصفة"؟

"سيحدث شيء غير سار ياسيدتي".

واحتد صوتها وهي تستطرد قائلة:

"سيحدث هذا اليوم".

وسكتت عن الكلام عندما سمعت محاولة لفتح الباب المغلق واستدارت لتسمع تكرار الصوت، واحتقن وجه دومني تحت وهج نظرات ليتا المتعجبة، ثم قالت:

"افتحي الباب ياليتا".

وحيت ليتا السيد تحية الصباح، ثم انصرفت من الغرفة على عجل، وبقيت دومني في مكانها وقد شحب وجهها بعض الشيء وهي تنظر الى بول، كان يرتدي قميصا حريريا غامقا، وبنطلونا رماديا، وقال وهو يشير ناحية الباب الذي فتحته ليتا:

"افعلي ذلك ثانية يافتاتي، ولن أنتظر حتى تسمح لي خادمتك بالمثول بين يديك، سأحطم الباب".

وكان يبدو غاضبا بما فيه الكفاية لأن يفعل ذلك، أما دومني فقد تملكتها رغبة جامحة في الضحك، ورفعت يدها وعضت على أصابعها عندما اقترب من سريرها وبدا كقط مائج، ووقف يتأملها، ولمحت نظراته تنزلق من كتفيها الى الشيفون الأزرق الذي يغطي صدرها. وأسرعت تحجب نفسها بالغطاء، فرفع حاجبه لتصرفها، ثم أطلق ضحكة قاسية عالية كشفت عن أسنانه البيضاء. وقال:

"اغلاق الابواب، والتظاهر بالاحتشام من شأنه أن يضاعف حرارتي لا ان يخفضها".

وفي اللحظة التالية كان جالسا على حافة السرير، محملقا فيها. كان وجهه خاليا من التعبير، لم تعرف دومني ما اذا كان متضايقا او مسرورا، ثم قال وعيناه فوق الخاتم الذهبي في يدها.

"انا أدرك جيدا يادومني أنك لا تريدينني، ولكن أخشى

أن تكوني مضطرة الى احتمال نوبات عاطفيتي، وفي أي حال يمكنك أن تؤاسي نفسك أنه سيأتي يوم لن أكون فيه محتاجاً اليك أبداً".

وكان ينطق بكلماته ببرود وسخرية، ووجدت دومني نفسها تجفل منه كأنه صفعها، وأخذت كلماته تتردد وتتردد في ذهنها، وأسلمتها صراحته الصارخة الى حالة من الغضب. وقالت وعيناها تقدحان لهيبا:

"فهمت يابول، أفسدت حياتي لمجرد ارضاء نزوة عابرة في حياتك سحقت كبريائي، وأرغمتني على الزواج بك، لتمتلكني بعض الوقت لا غير. لقد عرفت دائما أن هذه هي دوافعك للزواج مني، ولكنني لم أتصور قط من القسوة فتصارحني بها".

وسكتت ريثما تلتقط أنفاسها اللاهثة، قبل أن تقول بغضب مليء بالألم:

"حسناً، وشكراً على اخباري، الآن لن أهتم بأنه من الخطأ كراهية انسان آخر، سأشعر بأن في ذلك عدالة".

قال بكسل:

"أجل، دعي نفسك تشعرين بأن في ذلك عدالة، شيء يدهش حقا كيف أن مثل هذا التبرير يمكن أن يريح الضمير".

"أشك في أن لك ضميرا ولكنني أعرف أنك بدون قلب".

وبابتسامة ماكرة تحسس عضلات صدره، ثم انحنى فوق المنضدة بجوار السرير، وأخذ الكتاب الموضوع فوقها، وفتحه وأنطلق يقرأ جملة من رواية مترجمة الى الانكليزية لكاتب يوناني معروف اسمه "نيكوس كازانتزاكيس" وسألها:

"هل في نيتك أن تكتشفي عمق الشخصية اليونانية"؟

أجابت ببرود:

"أنا أقرأ كازانتزاكيس للتسلية، فهذا بالنسبة الي هو الهدف الوحيد من قراءة الروايات".

قال بول بابتسامة باهتة:

"كل شخص أسير ردود فعله في الحياة، لذلك فهو لا يستطيع أن يتحدث بلسان الجمع". كازانتزاكيس يكتب عن الحب كما لو كان سيفا يغمد في القلب، هل تعتقدين أنه على حق"؟

"لا أعرف".

قال وعيناه تضيقان:

"مع أنك أحببت، ألم تحبي يادومني"؟

قالت ببرود:

"أن تقع في الحب، هو أن تسلم نفسك لأهواء، وربما لقسوة شخص آخر، وأنا لن أخاطر ثانية".

وأشار بول ناحية الباب الذي أغلقته في وجهه في الليلة السابقة، وقال:

"هل فعلت ذلك، لأني طوحت بلوحة سوتيرن؟ ألم يكن ذلك عدم مبالاة فحسب"؟

"عدم مبالاة في مواجهة من"؟

والتقت عيناهما.. وتراجعت دومني الى الوراء محتمية بوسادتها حينما انحنى بول فوقها، وقرب وجهه من وجهها. ثم نهض واقفا. وقال وهو يعيد الكتاب الى مكانه على المنضدة:

"علي أن أذهب لمقابلة شخص هذا الصباح، ولكني سألحق بك لنتناول الغداء معا على الشاطىء... سأطلب اعداد سلة طعام".

"كما تشاء يابول".

وراقبته وهو يخرج من الغرفة، ويغلق الباب خلفه، ووضعت ذراعا فوق عينيها، وظلت ساكنة عدة دقائق، لكنها لم تذرف الدموع، كان عذابها أعمق من أن تنهمر له الدموع.

وبعد افطار يوناني خفيف من القهوة والفطائر والعسل، أخذت دومني كتابها وخرجت الى الحديقة، حيث جلست

تحت عريشة ومن حولها شجر الفلفل، والصنوبر، ومجموعة من الورود ذات الألوان الجميلة، والرائحة الزكية.

واستغرقت دومني في قراءة القصة وجاء يانيس حوالي الساعة الحادية عشرة حاملا سلة الطعام التي أمر بها بول، ولم تكن السلة ثقيلة، ولكن يانيس أصر على أن يحملها الى الشاطىء وكانت دومني تشعر باعزاز نحو خادم بول الجاد، الذي كان يستطيع أن يذكر كل أسماء طيور الجزيرة وورودها النامية على جانبي الممر المؤدي الى البحر. ولم يكن هو وليتا قد أنجبا، وبدا لدومني أنهما بطريقة ما ينظران اليها كطفلة، وكانا يديران البيت بمهارة، حتى أنه لم يكن لدى دومني ما تفعله سوى اكتشاف الغرف الكبيرة، والسلالم الملتوية المؤدية الى مخازن الأمتعة القديمة.

وقالت دومني:

"كم تبدو الجزيرة هادئة وجميلة اليوم يا يانيس".

ووقفت مبهورة أمام منظر البحر. وأشعة الشمس تنعكس فوقه والرمال والصخور، وابتسم يانيس وهو يرى مدى انبهار دومني التي أخذ النسيم يداعب خصلات شعرها وصاحت وهي تشير ناحية البحيرة التي ظهر فيها الدرفيل يقفز كما لو كانت له أجنحة، ثم يغوص في الأعماق.

"أوه، أنظر هناك يا يانيس"!

وكانت دومني تأخذ حمام شمس عندما لحق بها بول على الشاطىء، لم تسمع وقع أقدامه وهو قادم فوق الرمال، لكنها أحست بظله الطويل فوقها، وعندما جلست ورأت وجهه، بدا لها أنه مرهق وسألته:

"هل تريد الغداء حالا"؟

"كلا الا اذا كنت تريدين، أعتقد أننا ربما نخرج في نزهة بحرية أولا".

وقفزت قائلة:

"أنت على حق".

ومن جديد تمهلت عيناها فوق وجهه، وتبينت أنه، يعاني من الصداع، وأنه كان يتمنى أن يخفف نسيم البحر من حدة الألم، ولمست ذراعه بأصابع مرتجفة، وقالت:

"بول، ماذا يقول الأطباء عن صداعك"؟

وواجهها بابتسامة ساخرة، وعينين غير مقروءتين خلف نظارة الشمس، وقال:

"ياعزيزتي... هل أنت فعلا مهتمة بي"؟

"انا لا أحب أن أرى أحدا يتألم".

ثم سحبت يدها من فوق ذراعه، وقالت:

"آسفة اذا كنت تطفلت".

"سيتلاشى الألم بعد فترة".

وقفز الى الزورق، وفك الرباط ودفعه في المياه، وخلع قميصه وساعد دومني على القفز بدورها، وظل ممسكا بها لحظة، وهو يبتسم مثل قرصان اغريقي، وهمس:

"أحيانا، يا أسيرتي الصغيرة، لا أظن أنك تكرهينني".

ورفعت بصرها نحوه، ومن جديد تذكرت الكلمات التي تفوه بها في ذلك الصباح، وقالت بفتور:

"أنا أبذل ما في وسعي لانقاذ صفقة سيئة. لكني أعرف الآن أن عقوبتي ليست مؤبدة".

وضحك وتركها، وقاد الزورق، ولفترة ظلت الدرافيل تجذب انتباه دومني، وأعادت لعينيها بريقهما، وصاحت ليصله صوتها خلال هدير المحرك:

"كيف حال صداعك"؟

صاح بدوره من فوق كتفه:

"أحسن كثيرا... الدرافيل تجيد اللعب... هيه؟ انظري الى ذلك البرونزي اللون"!

وكان الدرفيل الضخم كبيرا، حتى أنه استطاع أن يميل الزورق عدة مرات، وأوشك أن يلقي دومني في الماء، وضحكت من أعماقها، ولكن بول حذرها قائلا:
"لا يوجد فقط درافيل في هذه المياه".
وكان يقصد سمك القرش، ورفض أن يدع دومني تقفز للسباحة حتى يدخلا منطقة الأمان في البحيرة، حيث الأسماك صغيرة جدا، ولا تجتذب الأنواع المفترسة.
وعادا الى الشاطىء، وجلست دومني على صخرة، شاردة تماما مع أفكارها، فجفت الرمال بين أصابعها، ونهضت وركضت في اتجاه المياه لتغسلها، لكنها احست بشيء ما يطعن باطن قدمها اليسرى، فأطلقت صرخة ألم.
واتضح أنها داست فوق قنفذ مائي صغير، وتبينت أن بعض الشوك نفذ تحت الجلد، وكانت دومني تعرف أنها لابد أن تتقيح اذا لم تنزع، وجلست فوق صخرة قريبة، وحاولت أن تنزع الشوك بأظافرها.
وجاء بول بجانبها متسائلا:
"ماذا فعلت"؟
وأخبرته، فركع أمامها، وأمسك بقدمها الصغيرة في يده... وبعد لحظة نظر اليها قائلا:
"لابد من نزع الشوك بملقاط... لكن اذا سرت على قدميك، فستتغلغل الاشواك داخل جلدك، تعالي، سأحملك حتى البيت".
وضحكت بعصبية وهي تبتعد عنه قائلة:
"لن يمكنك أن تصعد بي التلة يابول، ازداد وزني منذ جئت الى اليونان".
لكنه أحاطها بذراعيه، وحملها بسهولة وسألها:
"أمازلت تشعرين بالتوتر معي يادومني"؟
وعبر بها الشاطىء، ومنه تحت قوس الكهف الموصل

الى البيت وأحست بخفقات قلبه كاللمسات. وفجأة، وكما حدث في المركب منذ ساعة أو أكثر، أحست في كيانها ضعفا، وبدأت تدرك حقيقة لم تكن واضحة بعد في ذهنها، ولكنها في المركب استطاعت أن تهرب من رقابة بول في الجانب الآخر، اما هنا بين ذراعيه... فكانت أسيرة. وازدادت ظلمة الكهف وهما يتوغلان داخله، وفجأة، مثل زئير حيوان مختفي، ترددت أصداء من فوقهم، وأصوات ضوضاء مخيفة، وتسمر بول في مكانه، وقد ازداد ضغط ذراعيه حول دومني، التي أمسكت بكتفه العاري بقوة، وغرست دون وعي أظافرها في جلده وهي تقول:
"ما هذا يابول"؟
ولم يجبها في الحال، لكنه ظل يرهف السمع، وهو يحدق كالقط في وجود الخطر المفاجىء ومن جديد ارتفع صوت شيء يتصدع، واهتزت الأرض، وأوقف بول دومني على قدميها وقال ملهوفا:
"اركضي ياصغيرتي، الكهف سينقض علينا".
وخفق قلبها وهي تركض. كانت تعرف أنهما على بعد دقائق من الباب الذي يمكن أن ينقذهما من الخطر المحدق بالكهف، ويوصلهما الى البيت، ومن جديد ارتفعت أصوات التصدع، وكانت دومني تنظر الى فوق مذعورة، عندما انفتح سقف الكهف وتهاوت الصخور وقذفت بها على ركبتيها، وأرغمتها على اطلاق صرخة، سرعان ما خمدت وسط سيل الغبار والألم.

١١ - وفقدت الطفل..

كانت غرفة مكتب بول ظليلة، وقد أضفى عليها السقف المنحوت من الخشب، والجدران البيضاء، جوا من الهدوء ولم يكن له صدى لدى الرجل الذي كان يذرعها ذهاباً واياباً كالنمر الهائج.

وكان قد مضى وقت طويل منذ أن غير ملابسه الممزقة، وضمد له يانيس جروح يديه، ذلك أن الطبيب كان مشغولا في الدور العلوي، وقد بدا لبول أنه انقضت عليه ساعات هناك.

والقى بسيكاره ... قبل ان يكمله، وخرج الى الشرفة التي لم يكن يفصلها عن الصخور والبحر الداكن سوى سور حديدي رقيق، كانت النجوم تلمع في السماء، وقد انتشرت في جو الليل الرطب رائحة الصنوبر أشبه بالمسك المعطر، وكانت أنوار مراكب الصيد تبدو على مرمى البصر متناثرة، كالطيور المشتعلة. واتكأ بول بيديه المجروحتين المضمدتين على السور الحديدي. ولو كان ذلك يسبب ألما، فلم يكن يظهر عليه أنه يشعر به. كان يقف منتظرا، وهو يتأمل أمواج البحر تتهامس عندما تلتقي بالصخور.

وأحس بول بوقع خطوات فوق السجادة التي تغطي أرض الغرفة وشعر بوجود الرجل وراءه أكثر مما سمعه.

واستدار بسرعة ولم يكن من المستطاع رؤية تعابيره، لأن الظلمة كانت كثيفة. وصاح بول باليونانية:

"أخبرني، كيف حالها الآن يا ميتروس ؟".

وألقى الطبيب اليوناني نظرة على الحاجز الرقيق الذي يفصل بين بول ستيفانوس والتلال التي تنتهي بعيدا بالصخور المتحطمة، وقال:

"ادخل يابول. نستطيع في الداخل أن نتحدث أفضل".

"ما هي الحقيقة ياميتروس؟ هل تخشى أن تتحطم روحي تماما؟ هل ماتت"؟

وامسك ميتروس بذراع بول ودفعه الى الداخل وهو يقول:

"لا نستطيع أن نتكلم هنا".

واغلق النوافذ، وأسدل الستائر. وصاح آمرا:

"النور يارجل... النور".

واضيء نور فوق المكتب، فألقى ظلالا من زاوية غريبة على وجه بول، أظهرت شموخ وجنتيه، وكانت الندبة داكنة، وحدودها واضحة ومحتقنة.

والتقط بول أنفاسه بصعوبة وقال:

"دومني... لم تسترد وعيها، ألم تطلب أحدا"؟

"زوجتك لم تمت".

وملأ الطبيب كأساً صغيرة، ووضعها في يد بول مستطردا:

"تعال، اشرب هذا يا صديقي".

وبهزة من رأسه الداكن رفض، وأعاد الكأس، ثم حملق بعينيه النمرتين في الطبيب متسائلا:

"ما الذي فعلته بها كل هذه الصخرة؟ هل ستصبح مقعدة"؟

وكان للطبيب وجه طيب، تحت شعر داكن تتخلله شعيرات رمادية ونظر الى بول، وأخرج سيكارة ووضعها بين شفتيه، واطلق دخانها، ثم قال في هدوء:

"زوجتك الشابة الجميلة فقدت الطفل".

وتظر بول الى ميتروس مشدوها ، وقال:
"ماذا؟ ولكن، أنا ، أنا لم تكن لدي فكرة، طفل؟ انها لم تخبرني بشيء"٠
وتفحص ميتروس بول، ثم قال:
"ربما لم تكن متأكدة، عروس شابة، وبعيدة عن أهلها ، ثم ان الحمل كان في شهرين فقط"٠
"شهران"!
وصمت بول كأنه ينظر الى الوراء، ويعود بذاكرته الى أول ليلة أمضاها مع دومني، وخيمت على عينيه سحابة حزن٠
وربت ميتروس على ذراعه قائلا:
"اني أسف، فهذا الطفل بالنسبة اليك يعني الكثير، أعرف ذلك٠ ولكن الفتاة ستتغلب على الصدمة، وتستطيع أن تنجب أطفالا آخرين، الوقت امامكما"٠
"كلا، لن تكون هناك فرصة أخرى٠٠٠ الطفل الذي كان يمكن أن تحبه، ذهب، ذهب مثل السعادة، مراوغا، ولن نعثر عليه ثانية معا"٠
وقال ميتروس بغضب:
"يالها من طريقة يتحدث بها رجل! هذه المرأة٠٠ يجب ألا تحرم من طفل تحبه"٠
قاطعه بول قائلا بمرارة:
"طفل؟ ياصديقي، تلك المرأة تكرهني، تكره رؤيتي، وصوتي، ولمستي، آه٠٠٠ انت تبدو مصدوما، ولكن أوكد لك أن هذه هي الحقيقة، وعندما تعيش مع هذه الحقيقة جنبا الى جنب لمدة شهرين، كاملين باستثناء ساعات قليلة عابرة، فان الشك لا يساورك، انها نظرة في العينين، رجفة عندما أحاول اللمس، حشرجة في الصوت تخفي دموعا لم تكن تعرفها قبل أن تلتقي بي"٠٠٠
"انها تزوجتك يابول"!

"انت يوناني ياميتروس، وتعرف مثلي تماما أن المرأة لا يدخل الحب في حسابها دائما عند الزواج"٠
"أنا٠٠٠ أنا أفهم"٠
واطفأ الدكتور ديميتريوس سويزا سيكارته، واستطرد بقول:
"هل لهذا الموقف دخل برفضك اعادة التفكير في قرارك الآخر ذلك الذي ناقشناه في عيادتي صباح اليوم"؟
"ليس تماما ياميتروس"٠
ونهض بول من أمام مكتبه، وخطا نحو الباب قائلا:
"والآن، هل أستطيع أن أصعد لأرى زوجتي"؟
"انها تحت تأثير المخدر يابول، وستنام حتى صباح الغد، تركتها في رعاية ليتا، ولكن تستطيع طبعا أن تلقي عليها نظرة"٠
وتقدم ميتروس من بول، ولأنه كان أقصر منه قامة، تطلع اليه قائلا:
"حاول أن تنام ياصديقي، الفتاة شابة، وسليمة البنية٠٠٠ وستسترد صحتها بسرعة"٠
"هل ستأتي مرة أخرى في الصباح ياميتروس"؟
"بالطبع"٠
وتخللت أصابع بول شعره الداكن، وقال:
"لو أني تقدمت دومني في الخروج من الكهف، اذن لتلقيت أنا صدمة انهيار الصخرة، ولكني طلبت منها أن تركض أمامي معتقدا أنها ستصل الى الباب في الوقت المناسب"٠
"يجب ألا تلوم نفسك على ذلك"٠
وصلا الى الصالة، فأخذ ميتروس حقيبته السوداء، وسترته وتصافحا أمام الباب٠ ثم صعد بول الى الدور العلوي، وبهدؤ دخل غرفة دومني، حيث جلست ليتا على مقعد بجوار السرير، تشغل نفسها بشغل التريكو على ضوء خافت٠ واقترب

بول من السرير حيث كانت دومني ضئيلة للغاية، تائهة
بتأثير المخدر الذي أعطي لها عقب سقوط الصخرة فوقها،
وفقدها الطفل. وكانت أهدابها الطويلة ترسم خطين داكنين
فوق وجنتيها ويدها اليسرى فوق الغطاء، وقد بدى الخاتم
الذهبي ثقيل على الاصبع النحيل.

وكان السكون في الغرفة شاملا، اذ كفت ليتا عن تحريك
ابر الشغل، وحينئذ قال بول بصوت خافت:

"يمكنك أن تذهبي لتستريحي ياليتا، سأبقى هنا".

وترددت المرأة، ولكن كان واضحا من وجه بول أنه مصمم
على البقاء، لذلك خرجت بعدما ألقت نظرة على دومني،
ولكنها لم تتوجه مباشرة الى سريرها، بل اتخذت طريقها الى
الدور السفلي، حيث أعدت لبول فنجان قهوة تركي داكن،
ووضعت على الصينية بعض البسكويت، ثم حملتها اليه. وكان
قد وضع مقعدا بجانب الفراش حيث جلس ووضعت ليتا
الصينية في متناول يده، ثم تركته وحده مع زوجته النائمة.

وعندما تحركت دومني كانت اشعة الفجر تشق الظلام،
وأحست احساسا مبهما بوجود شخص معها، يساعدها على
الجلوس لتبلل حلقها الجاف بقطرات من عصير الليمون، كان
كل جسمها يؤلمها وشعرت بثقل رأسها. وتساءلت وهمست:

"شكرا".

لم تكن قادرة على رفع جفنيها، لكنها أحست بكتفيه
فوقها أشبه بالجناحين واستغرقت في النوم من جديد قبل أن
تستطيع التفكير فيمن يكون هذا الشخص، وعندما تنبهت من
جديد، كانت ليتا هي الموجودة، ومعها رجل طيب المحيا هو
الدكتور ديميتريوس سويزا.

وبعد ثمانية أيام كان يتناقش معها في حالة الاجهاض
التي تعرضت لها، وشرح لها أن الصدمة هي التي سببت لها
هذه الحالة. وجلست دومني ساكنة تماما، مستندة على

وسائد الأريكة. ففي الحادثة كان أول احساسها بوجود
الطفل، ولكن عقلها لم يكن قد تقبل الحقيقة بعد...
والآن... فات الأوان لأن تفرح او تحزن.

وقالت بهدوء:

"كان بول يتمنى الطفل، لابد أنه تضايق عندما أخبرته بأنني
فقدته".

"انا متأكد أنه كان سيهتم أكثر لو أنه فقدك".

ورغم أن انكليزية الطبيب لم تكن في طلاقة انكليزية بول،
الا أن دومني فهمت كل كلماته المهذبة، ثم أخذت تتفحص
ساكنة يديها المعقودتين فوق ثوبها الحريري الطويل، وتأملها
الطبيب وتعجب من رصانتها، فالفتاة اليونانية لابد أن تبكي
بحرقة لفقد طفلها الأول ولكن هذه الانكليزية الجميلة الفاترة
جلست بعينين جافتين، وقد بدت كان الأمر لا يحركها وأشعل
ميتروس سويزا سيكارة وهو يفكر في أن الأمر لابد أن يكون
كما زعم بول. هذه الفتاة ذات العينين الزرقاوين الغائرتين،
والرأس الملكي، لم تكن تحب زوجها.

وكانا يجلسان في الشرفة، حيث قدم لهما يانيس الشاي
التركي في أكواب طويلة، مع شطائر وفطائر وحلوى، وكان
بول قد ذهب في سيارته الى عمته، لكي يحضر كارا، وعندما
رأى ميتروس أن دومني تكتفي بشرب الشاي ولا تمد يدها
اتملأ طبقها، قال لها:

"يجب أن تحاولي أكل بعض الشطائر، سأخدمك بنفسي".

"لست جائعة يادكتور".

"ولكنك يجب أن تأكلي يا ابنتي، والا استغرقت وقتا طويلا
في الشفاء، هاك شطيرة دجاج، وأخرى بالجبن، وأنا أصر
على أن تأكلي".

وكانت طيبة الطبيب ومودته لا يمكن اغفالهما، ووجدت
دومني نفسها تأكل، وتتبادل معه بعض انطباعاتها عن

بلاد اليونان، وعلمت منه أنه أرمل، وله ابن واحد يدرس الطب في أثينا.

وقال الدكتور سويزا مبتسما:

"لن يسره أن يعمل طبيبا في جزيرة، أما أنا، فالعمل يلائمني هنا، أمارس مهنتي في عيادة الاطفال التي تبرع بها زوجك والمرضى الأثرياء مثله يعاونون في دفع نفقات غير القادرين".

"هل تعالج بول يادكتور من صداعه"؟

وكان الطبيب يهم باختيار فطيرة، وظلت الشوكة بين أصابعه على الأقل لمدة دقيقة، وأخيرا بعدما وقع اختياره على القطعة التي يريدها اثر تباطؤ لا يقتضيه مجرد الاختيار، رفع عينيه نحو دومني وسألها:

"هل حدثك بول عن صداعه"؟

"ليس تماما... يبدو متضايقا كلما فتحت الموضوع، لأنه قوي للغاية فيما عدا هذا الصداع، لذلك أعتقد أنه يكره الاعتراف بناحية ضعف لديه".

وتشاغل الطبيب بأكل الفطيرة، وبمشاهدة النحل يمتص الرحيق من الأزهار التي تتسلق الجدران، ثم قال فجأة:

"ربما، فبول يوناني للغاية، واليونانيون ليسوا سهلي الفهم انهم أشبه بجبال الجليد التي يظهر منها جزء بسيط فوق السطح ويختفي الأكثر في الاعماق".

همست دومني:

"جبال الجليد يمكن أن تسبب الكثير من الاضرار".

"ولكنها يمكن أن تذوب، فالثلج ليس حديدا".

"أتخيل أن ذلك يحتاج الى درجة حرارة عالية".

وضحكت دومني، وابتسم الطبيب للرنين وللحيوية والجمال التي أضفتها الضحكة على الوجه الذي لم يكن قد عرفه الا متألما... فاترا... رصينا... ولمعت عيناه، وأدرك أنه أخطأ

في اعتقاده أنها باردة،كم كانت عيناها تعكسان زرقة السماء والبحر، وكم كان فمها لذيذا، لم تكن سوى طفلة، حساسة، خجول، وليست من النوع الذي يستطيع أن يفصح عن مشاعره.

وانثنى الى الامام، ونظر اليها مباشرة، وقال:

"لا توجد سوى شعلة واحدة يمكن أن تقهر كل شيء، وقليلون يستطيعون التصدي لها".

"هل هذا لغز يادكتور"؟

"ممكن يا صغيرتي أن نطلق عليه وصف لغز، انه أعقد ما في الدنيا، ولم تفك طلاسمه تماما رغم مرور كل هذه السنين منذ قدمت حواء التفاحة المحرمة لآدم".

وتشابكت يدا دومني، كأن كل منهما تجد الراحة لدى الأخرى... وقالت:

"فهمت، انك تتكلم عن الحب يادكتور".

"ألست متفقة معي أنه موضوع ساحر، ياسيدتي"؟

وأشاحت بنظرها بعيدا، وتساءلت اذا كانت في غيبوبتها أفضت اليه بمكنون نفسها، كان طيبا، وناضجا، وكان يذكرها بعض الشيء بالعم مارتن، ولكن أن تفضي لآخر بأسرارها كان راحة وقتية يعقبها الضيق، والندم.

ونظرت دومني الى الطبيب، وأحست من نظرة عينيه أنه يعرف شيئا، هل تراها ذكرت باري خلال ساعات الغيبوبة بعد الحادثة؟

ونهض الدكتور سويزا واقفا، معلنا أن عليه زيارة مرضى آخرين، وعندما أمسك بيد دومني، كان لضغطه عليها معنى، وابتسم قائلا:

"يجب أن نتحدث معا مرة أخرى. قريبا عندما تشعرين على استعداد"؟

"نتحدث عن ماذا يادكتور"؟

"عن الاشياء التي لا نستطيع أن نهرب منها

ياطفلتي، والأشياء المحتمةللولادة... والحب... والموت".

وحدقت فيه بعينين واسعتين، تائهتين، والتقت عيناه الداكنتان بعينيها لحظة، ثم أحنى رأسه الرمادي وقبل يدها وحياها باليونانية ومضى.

وبعد نصف دقيقة خلت الشرفة الا من وجودها، وجلست ساكنة تماما، وقد تملك عليها احساس غريب بالوحدة، وكان البيت كله غارقا في الصمت، كانت فترة القيلولة، التي يخلد فيها الجميع الى الراحة، حتى الطيور تبدو هادئة منكمشة فوق الأغصان.

واسترخت دومني في جلستها، وأغمضت عينيها، وسمعت حفيف أشجار الصنوبر، وهمس أمواج البحر، وبدا لها كما لو كان طفلها الميت يدق على قلبها، لقد ذهب الحب الذي كان يمكن أن يأتي به، وأن يمنحه، وانحدرت دمعة على خد دومني.

ونامت لفترة قصيرة، واستيقظت فجأة وهي تشعر بالبرد، لم تعد الشمس تضيء الشرفة، ولاحظت أنه خلال غفوتها، زحف الضباب الذي كان يعلو البحر وغطى الجزيرة كلها، وكون حزاماً حول البيت. وكانت دومني قد نبهت الى توقع مثل هذا الضباب، ولكنها لم تكن تتصور أنه يمكن أن يصل الى نهاية الجزيرة بهذه السرعة، وتلك الكثافة وبشيء من التوتر تركت الأريكة، وذهبت الى نهاية الشرفة لتنظر من فوق الصخور الى البحر، ولكنها بصعوبة استطاعت التمييز، وان سمعت صوت تلاطم الأمواج وزحف الضباب ببطء ليلامس شعرها... وساورها احساس بأنها معلقة مع البيت في السحب.

وسمعت وقع أقدام ولكن عندما التفتت سريعا، وجدت يانيس قادما في اتجاهها، وصاحت:

"يبدو أننا منعزلون هنا يا يانيس".

وأومأ بجدية قائلا:

"نعم ياسيدتي، الرطوبة شديدة هنا في الخارج، ويجب أن تدخلي".

"سأدخل يا يانيس".

وأشعرها اهتمامه بالدفء، وقالت:

"هنا، فوق، أشعر كأنني هيلين تسير على أسوار طروادة. هل تعتقد أن الضباب سيستمر طويلا"؟

"بضعة ساعات ياسيدتي".

"أوه... اذاً فسيؤخر ذلك عودة زوجي وأخته، ألا تعتقد ذلك؟ الطريق الموصلة الى هنا ملتوية ومنحدرة، ومع صعوبة الرؤية بسبب الضباب، لا أعتقد أن بول سيجازف بقيادة السيارة ومعه أخته".

"أشك في ذلك ياسيدتي".

وأمسك يانيس بالباب ريثما نفذت دومني الى الداخل، حيث وجدت المدفأة موقدة. وتقدمت منها فرحة وهي تجمع أطراف ثوبها، ولم تستطع بسبب جروحها أن تنحني كما كانت تحب لتستمتع بدفئها، فجلست على مقعد بول، ومدت يديها لتدفئهما. وكانت ليتا تعد عشاء خاصا احتفالا بقدوم كارا، ولما كان من الأرجح أنهما سيتأخران بسبب الضباب، أخبرت دومني يانيس أنها ستتناول شيئا خفيفا بجانب المدفأة حوالي الساعة السابعة، وأضافت أنها ترجو ألا يضايق ليتا التأخير في تقديم الوجبة الخاصة باستقبالهما.

وابتسم يانيس وهز رأسه قائلا:

"سعادتنا في أن تستردي صحتك من جديد، هل تحبين فنجان شاي الآن، ياسيدتي"؟

وأومأت بالشكر والقبول، بينما اغرورقت عيناها بالدموع وهي تراقب يانيس عند خروجه من الغرفة وبذلت دومني جهدا في مقاومة الدموع التي أحست بالرغبة في ذرفها. وكان فنجان الشاي ممتعا، بجانب المدفأة حيث مدت

قدميها • وكان الضباب قد امتد أكثر، وسمعت دومني دقات الساعة، وقررت أن تصعد الى غرفتها لترتدي ثوبا، كانت تشعر بالارهاق، ولكنها صممت على الا تأوي الى الفراش، فالضباب كان يمكن أن ينجلي في أية لحظة، وسيكون ترحيبا انيقا لكارا وبول أن يجداها في انتظارهما •

وارتدت ثوبا أزرق طويل الأكمام لتخفي جروح ذراعيها عن عيني كارا لئلا تزيد من قلقها، ولمحت وجهها شاحبا في المرآة، ووجود هالات سوداء حول عينيها • استعملت أدوات الزينة لاخفائها • وبدا لها الثوب متواضعا بعض الشيء، واحتاجت لعقد يضفي عليه رونقا • وفتحت الدرج الذي تحتفظ فيه بمجوهراتها، ووجدت بدلا من العلبة الجلدية البسيطة صندوقا رائعا حفرت عليه أشكال طيور، وأصداف • وفتحت دومني الصندوق، أجل ••• كانت مجوهراتها فيه، مرتبة في أدراج دقيقة الصنع أشبه بالاعشاش •

كان الصندوق الأثري لحفظ المجوهرات هدية من بول، تعبيرا صامتا عن مشاركته ومودته، لأنه طيلة الأيام الثمانية المنصرمة، لم يذكر مرة واحدة شيئا عن فقد الطفل، وكان تصرفه في الواقع تجاهلا غريبا •

ولمست هديته، وهي تشعر ببهجة لم تتغلغل داخل قلبها، وأخرجت العقد البسيط الذي كان ملكا لأمها، والذي لبسته يوم زواجها، اللآلىء تعتبر دليل نحس للعروس، لكنها توقعت دموعا بعدد حبات العقد في ذلك اليوم، ولم يكن يهمها أنها تتحدى القدر •

في طريقها الى الدور السفلي، توقفت أمام نافذة، وأطلت منها ورأت أن الضباب ما زال يغشي المكان كله، ولمحت الأشجار في الغابة أشبه بالأشباح، وشعرت بالبيت خاليا، خاويا، وسرت اذ وجدت يانيس في غرفة الجلوس، يسدل الستائر، وكانت الأنوار مضاءة، ونار المدفأة مشتعلة •

وبدا لها أن التوتر يفقد حدته بتأثير دفء هذه الغرفة وأناقتها وابتسمت وهي تشم رائحة الورود التي وضعها يانيس على منضدة قرب المدفأة، وفتحت الراديو فانسابت منه ألحان احدى الفرق...

وتهالكت دومني على المقعد الذي قدمه لها يانيس، وقالت:

"أما زال الضباب كثيفا"؟

وسكب لها كأسا من الشراب وقال:

"ما زال على حاله ياسيدتي" •

وتأملت كأس الشراب اليوناني الذي كان بول يقول دائما انه يجب أن يؤكل معه التين وفطائر العسل، لأنه ما من مادبة عشاء في القديم كانت تكمل بدونه أبدا • وشعرت برجفة اذ بدا لها أنها تسمع ضحكته، ودفأت نفسها برشفة...

وسمعت يانيس يقول وهو يحرك نار المدفأة لتزداد اشتعالا:

"أنا متأكد أن السيد ستيفانوس لن يخاطر بالعودة في هذا الضباب ياسيدتي، والآن سأحضر لك الشورباء" •

وتناولت دومني الطعام لتسعد يانيس وزوجته، وليس عن شهية، ورفعت المائدة، وكانت تشرب القهوة وهي جالسة على مقعد بول، عندما سمعت طرقا عاليا على الباب الخارجي، وخفق قلب دومني اضطرابا، وكانت قد وقفت عندما فتح الباب واقبل نيكوس ستيفانوس مسرعا، يتبعه باري سوتيرن •

١٢ - بين الكبرياء والحب

تقدم نيكوس بشعره الاسود المجعد من رطوبة الضباب، واتجه الى دومني مباشرة، وأمسك بيديها، كانت يداها باردتين، مرتجفتين في يديه، وأدركت أن شيئا مزعجا قد حدث، وانتقلت عيناها الى باري، كما لو كانت تستنجد به، ثم قالت لنيكوس:

"كارا وبول؟ أليس كذلك؟ هل قتلا في حادث سيارة"؟

وعض نيكوس شفته، بينما دس باري يديه بعنف في جيبي سترته. وبدت عيناه داكنتين وهما تلاقيان عيني دومني التي صاحت وهي تغرس أظافرها في يدي نيكوس:

"أخبرني"!

"كارا بخير، أنه بول، نقلوه الى المستشفى".

وتلاحقت أنفاس دومني تسأل:

"هل اصيب بسوء"؟

والقى نيكوس نظرة الى باري، ثم ساعد دومني على الجلوس وقال:

"لقد نقل بول مريضاً الى المستشفى وحالته خطرة".

ووضع باري يداً فوق كتفها، وباليد الأخرى قرب حافة الكأس من شفتيها وهو يقول:

"اشربي هذا".

وشربت، مدركة أنه أعطاها شراباً قوياً لأن نيكوس كان على وشك أن يضيف ما هو أسوأ مما قاله، ووقف نيكوس ينظر اليها بوجه شاحب ومكتئب، وقال:

"ليس من المتوقع أن يعيش ابن خالي، الأطباء يعطونه بضع ساعات فقط وفكرت أنك لابد تريدين أن تكوني الى جانبه يادومني".

وحملقت في نيكوس ذاهلة، بول يقترب من الموت؟! شيء لايصدق، واستطرد نيكوس يقول:

"لم يكن من الصواب اخبارك بنبأ كهذا هاتفياً. وكان باري معنا في البيت، فجئنا بالسيارة، كان الضباب المنخفض سيئا، ولكن الرؤية الآن أكثر وضوحا".

الضباب؟ وما أهميته؟ وقفزت دومني واقفة لمحت يانيس يقف قلقا على عتبة الباب وكان واضحا على وجهه أنه سمع ما قاله نيكوس عن بول، وانطلق يهز رأسه وهو ذاهب ليحضر لها معطفها ووشاحها، ذلك المعطف الجميل الذي ساعدها باري على ارتدائه، ووقف يغلق أزراره لها، ثم رفع ياقته حول رأسها الذي لفته بالوشاح الذي كانت قد اشترته من البلاكا... البلاكا التي اكتشفتها مع بول...

بول... يموت!

ووجدت نفسها تستقر في السيارة بجانب باري على المقعد الخلفي، ووقف يانيس وليتا على باب البيت الخارجي يراقبان في صمت كشبحين، بينما كان نيكوس أمام عجلة القيادة، يلف ليتجه نحو الطريق المنخفض. وكان رأس ليتا ملفوفا بوشاح أسود، وعيناها دامعتين.

وظلت عينا دومني جافتين تماما، ولكنها كانت تشعر بهما أشبه بجمرتين في رأسها وأحست كأنها ظلت تتخبط وسط الضباب فترة طويلة، وبدأت أخيرا ترى بوضوح.

عرف بول منذ شهور أن هذا المرض أصابه...

نوبات الصداع كانت النذير ... وكانت أيضا الدافع وراء بعض أقواله وتصرفاته.

بول كان يعرف منذ فترة أنه سيموت!

وأحست دومني بيد باري تغلق في دفء على يديها مواسية. بينما كان نيكوس يتقدم ببطء في الطريق، وتحرك الى الأمام ياردات عدة، ثم أوشك على التوقف عندما قارب أعشابا في منحنى شديد، وتذكرت دومني ليلة سابقة كانت تجلس بجوار بول وهو يقود السيارة في هذه المنطقة، لقد شعرت وقتذاك أنهما معلقان في النجوم، والآن لم تكن هناك نجوم، الضباب وحده وأشباح الأشجار.

وبعد فترة قال نيكوس أنه استطاع أن يلمح الفنار الذي يقع في منتصف المسافة بين أنديلوس وجزيرة مجاورة، وأن ذلك يعني أنهم يقتربون من الميناء، ومن المستشفى.

وخفق قلب دومني عنيفا سريعا بتأثير التوتر النفسي والعقلي. ومالت على كتف باري، مقدرة رفقته الصامتة، القوية، ما الذي كان يفكر فيه وقد جلس ممسكا بيدها؟ ان القدر يلعب دوره، وانه يجمعهما متقاربين ثانية... والحياة توشك أن تفارق الرجل الذي وقف بينهما؟

وقطعت دومني الصمت وقد انفك رباط حلقها وقالت:

"ماذا حدث يا باري؟ هل كنت في بيت العمة صوفيولا عندما ... عندما سقط بول مريضا"؟

"كنت في الخارج في نزهة بحرية مع آل فانهوزن والكسيس... وبدأ الضباب يتكاثف، وحينئذ عدنا الى الميناء... وتناولت والكسيس كأسا عند آل فانهوزن، ثم رافقتها حتى البيت لأن تكاثف الضباب بدأ يزداد، ووصلنا الى البيت في لحظة كانت سيارة الاسعاف تنقل بول. وقد ذهبت كارا وعمته معه، وكان نيكوس في البيت فشرح لي وللأكسيس الموقف".

وهمست دومني وهي تتصور حالة الفتاة التي كانت تحب بول كثيرا:

"مسكينة الصغيرة كارا، لابد أنها صدمت صدمة شديدة".

وقال نيكوس وهو يدقق النظر من خلال أنصاف الأمتار التي تتركها مساحات السيارة خلفها:

"ذهبت معه دون دموع، بدت وكأنها كبرت فجأة".

بلا دموع، لأن اليونانيين الذين يبكون فرحا، يواجهون الكوارث في صمت والألم يمزق قلوبهم، وفكرت دومني أنه من الأشياء الطيبة، أن كارا ستجد نيكوس بجانبها. واستغرقت رحلتهم الى المستشفى وسط الضباب ساعتين، ولكنهم أخيرا وصلوا الى فناء المبنى وساعد نيكوس دومني في الخروج من السيارة.. وسار الثلاثة الى المدخل، حيث وجههم موظف الاستقبال نحو السلم المؤدي للطابق الذي يرقد السيد ستيفانوس في احدى غرفه الخاصة.

وكان ضوء الممر خافتا، وغرفة بول في منتصف المسافة، وعندما اقتربوا من الباب، كانت ممرضة تخرج حاملة صينية فوقها أدوات مغطاة بغطاء أبيض - واتجه نيكوس اليها، وسألها اذا كان من الممكن أن تدخل زوجة المريض لتراه. واستدارت الممرضة نحو دومني وقالت لها شيئا. لكنها كانت تتكلم اليونانية، وكان على نيكوس أن يشرح لها أن السيدة ستيفانوس انكليزية، ثم أخبر دومني أن الأطباء حاليا مع بول، وأن عليها أن تنضم الى الأقارب الآخرين في غرفة الانتظار. وهناك وجدوا كارا وعمتها، وقفزت كارا وهرعت نحو دومني، عيناها أشبه بعيني ظبي مطعون، داكنتان وكسيرتان وحزينتان، وهتفت بيأس:

"أوه يادومني، ماذا سنفعل بدون بول"؟

واحتضنت دومني الفتاة بقوة، ولكن لم يكن لديها اجابة لكارا، لم يكن لديها اجابة لنفسها.

وظلوا في الانتظار، لا يتحدثون كثيرا، بينما كانت ساعة الحائط تدق بانتظام، وكثافة الضباب تخف تدريجيا، لتترك السماء واضحة بعض الشيء، وفي منتصف الليل أقبلت ممرضة شابة تحمل صينية فناجين قهوة ينبعث منها البخار، وأمسكت دومني بالفنجان بيديها تحاول أن تدفئهما، حينما انفتح الباب ثانية، وظهرت الممرضة الاولى، وأشارت لدومني، وعندما قفزت كارا بدورها، قالت لها الممرضة بأسف انه غير مسموح لغير السيدة ستيفانوس برؤيته في الوقت الحالي.

وتماسكت كارا ووجهها ينطق بالألم، وأخذت من دومني فنجان القهوة، وقالت بصوت مختلج:

"اذهبي اليه، انه حقك".

وتبعت دومني الممرضة الى غرفة بول، وعندما دخلت لم تلاحظ لأول وهلة الرجل الذي كان واقفا في ردائه الطبي الأبيض بجانب النافذة، وسارت دومني ببطء حتى السرير الأبيض، حيث كان بول راقدا في سكون تام، وعيناه مغمضتان، وقد ترك الألم علاماته الواضحة على صفحة وجهه، وبرقة متناهية لمست دومني وجنته، وأحست بالعظام الشامخة فيها، ولم يشعر بلمستها، لأنه كان فاقد الوعي.

ولم تسمع الطبيب وهو يعبر الغرفة في اتجاهها، ولكنها احست بوجوده، واستدارت لتلتقي بعيني الدكتور ميتروس سويزا الطيبتين وهمست:

"يبدو من الخطأ الجسيم يادكتور أن يكون بول ... هكذا، مغلوبا على أمره، ألا يمكن أن نفعل شيئا؟ هل سنقف مكتوفي الأيدي، ونتركه يموت"؟

وتفحصها الدكتور سويزا لحظة طويلة، ثم أمسك بيدها وقادها خارج الغرفة، التي دخلتها الممرضة في الحال، وأخذها غرفة الاستشارات، وأغلق الباب خلفهما باحكام، وطلب منها أن تجلس، وأطاعت، ونظرت اليه من

فوق المكتب، وسألت بألم:

"ما هذا الذي يقتل زوجي"؟

"قطعة صغيرة من المعدن، شظية قنبلة يدوية انفجرت في وجهه عندما كان يحارب في حركة التمرد".

"ولكن ذلك حدث منذ زمن بعيد، كيف استطاع أن يعيش طوال تلك السنوات"؟

"هناك حالات أكثر غرابة ياعزيزتي، وهذا الجسم المعدني لم يكن يسبب له أي قلق على الاطلاق، ولكن عقب حادثة معينة منذ سنتين بدأت المتاعب، هل تعرفين أن بول كان له أخ"؟

"لوكاس مات غرقا منذ عامين تقريبا، وكان بول هو الذي غاص في البحر ليحاول انقاذه".

"بالضبط، ولكنه بعدما خرج الى السطح، تعرض لحالة اغماء ورأينا أنه من الحكمة ان يبقى في المستشفى لمراقبة حالته، وفي بحر هذه الأيام أجرينا له اختبارات، واكتشفنا أنه أثناء خروجه الى السطح في حالة نقص الهواء، تحركت الشظية المعدنية تحت الضغط، واستقرت في مكان أكثر خطورة في المخ... ومنذ ذلك الحين يادومني بدأ زوجك يعيش في خطر".

ووضعت دومني يدها فوق حلقها المتألم وقالت:

"وهل أخبرته بذلك"؟

وبابتسامة يختلط الحزن فيها بالاعجاب، قال ميتروس:

"بول ستيفانوس ليس بالرجل الذي يمكن أن تخفي عنه الحقيقة انه مقاتل فدائي شجاع منذ السادسة عشرة من عمره، تحول الى رجل رائع بمرور السنوات، رجل شجاع، جريء، يحمل كثيرا من الاحترام لحقائق الحياة، ولا يمكن تضليله هاجمته موجات الصداع دفعة واحدة، موجات حادة كانت تستعصي أحيانا على الأدوية، ولكن ليس دائما".

وجلست دومني ساكنة للغاية، كانت تستعيد المرات

التي عاش بول خلالها وحيدا داخل قوقعة آلامه، وأحست نحوه بحنان بالغ. وأحست بغصة في حلقها وهي تسأل فيما يشبه الصراخ:

"ألا يمكن فعل شيء؟ بكل تأكيد يمكن انتزاع هذه الشظية المعدنية بالجراحة، وبول يملك النقود، انه يستطيع أن يدفع نفقات أشهر جراح".

ومال ميتروس نحوها، وقال وقد عقد يديه:

"أوافقك تماما، توجد جراحة يمكن أن تنقذه، وبدونها سيموت حتما كما لابد أن يأتي الصباح".

"ولكن اذا نزع جراح خلال الساعات القليلة القادمة الشيء الذي يقتله، فانه اما أن يموت، أو أن يعيش حياة أشد ظلمة من الموت".

وحدقت دومني في ميتروس، وقد هوى قلبها، وهمست:

"تقصد، يفقد بصره"؟

"بالتأكيد، ولكننا لا نعرف ما اذا كان ذلك سيكون كلياً او جزئياً".

ونهض ميتروس من مكانه، واتكأ على المكتب بجانب مقعد دومني... وقال:

"توسلت الى بول أن يوافق على اجراء الجراحة، ولكنه انتفض ذعرا من فكرة أن يصبح أعمى، وعبئا على الناس الذين كان يرعاهم ويحميهم دائما. وفي مقدمتهم كارا الصغيرة، والآن أنت ياعزيزتي".

وهمست دومني تخاطب نفسها:

"أوه... لماذا لم يخبرني"!

"لأنه رجل يكره الشفقة... ولكن بالنسبة اليه، الموت أهون من العمى، ألم تلاحظي كيف يحب اليونانيون أن يخرجوا من بيوتهم منذ الصباح المبكر حتى الظلام تحت أشعة الشمس الوهاجة؟ ألم تلاحظي كيف يضيئون بيوتهم بأنوار

ساطعة ليبعدوا ظلام الليل عنها؟ وبول كيوناني اختار أن يموت لا أن يعيش في الظلام".

وتشبثت دومني بطرف المكتب وهي تقول:

"ولكن يجب ألا يموت! ماذا سنفعل بدونه، كارا وأنا، وكل الناس هنا في الجزيرة، الذين يحتاجون اليه كثيرا"؟

وابتسم ميتروس قائلا في هدوء:

"هل تحققت مما قلته الآن ياعزيزتي"؟

وأومأت برأسها، وقد امتلأت عيناها بالدموع، وهمست بحرقة:

"يجب أن تجرى له هذه العملية، أنا، أنا أستطيع أن أوقع على ذلك، ألا استطيع يادكتور سويزا؟ أليس ذلك حق الزوجة"؟

ودار ميتروس حول المكتب، ورفع سماعة التليفون، وقال وعيناه تنظران في عينيها.

"بالطبع هذا حق الزوجة، ولكن هل عندك الشجاعة لمواجهة بول، وهو حي هائج بعد أسبوع من الآن"؟

وقفت، ورفعت رأسها عاليا، والتمعت عيناها الزرقاوان ببريق شديد، وقالت بمعنويات مرتفعة:

"يستطيع أن يقتلني اذا شاء - أين الأوراق التي سأوقعها يادكتور"؟

قال وهو يدير رقما:

"أولا سأتصل بأثينا، كانت الابتهالات صادقة، فانقشعت عنا غمامة الضباب، دعينا الآن نبتهل أن نجد الجراح الذي نحتاج اليه بلا ارتباطات ليأخذ أول طائرة قادمة الينا".

وأغمضت دومني عينيها، ودعت الله، بينما كان ميتروس سويزا يتكلم في الهاتف باليونانية.

* * *

كانت ارض حديقة المستشفى مبللة بندى الصباح، وكانت العصافير تغرد على أغصانها، وأشعة الشمس تشرق فوق قمم الأشجار بلونها الذهبي فبعد ضباب اليوم السابق، أحست دومني وهي تنظر من نافذة غرفة المستشفى التي تقاسمتها مع كارا، أن اليوم سيكون يوما رائعا.

وكانت كارا لاتزال نائمة، وقد عاد نيكوس بأمه الى البيت منذ بضعة ساعات، كما ذهب باري ايضا، بعدما ضغط على يد دومني في يده، مثلما فعل فيما مضى، في ذلك اليوم الذي افترقا فيه على الشاطىء الانكليزي، ولكن هذه المرة، كان كل منهما يعرف أنه فراق الى الأبد.

ووضعت دومني معطفها فوق كتفيها، ومشت بحذر نحو الباب، لأنها لم تكن تريد ازعاج كارا في نومها، وفتحت الباب على مهل وخطت نحو الخارج، الى ممر بارد، حيث كانت الحركة قد دبت، بغدو الممرضات ورواحهن. ونظرت كثيرات اليها لكنهن كن مشغولات فلم يقلن شيئاً واتخذت هي طريقها الى الدور الذي يقع فيه غرفة بول. وعندما وصلت أمام الباب ترددت، ثم فتحت وأطلت على الداخل، كان سرير بول خالياً، والأغطية ملقاة على جانب، تاركة مكانه خاوياً تماماً. لم تشعر دومني أبدا مثل هذه البرودة تسري في كيانها. احساس رهيب بالبرودة استبد بها وهي تنظر الى الفراش الخالي، مكان رأس بول كانت لا تزال علامته فوق الوسادة، وساعة معصمه كانت على المنضدة المجاورة للسرير. وأحست بالدنيا تدور من حولها، وسمعت صوتا يقول لها تماسكي، ثم شعرت بيدين حازمتين تمسكان بها، وتجلسانها فوق مقعد، وجلست وهي ترتعش، بينما كان الدكتور سويزا يصب ماء مثلجاً في كوب، ويقربه من شفتيها، ويقول:

"أيتها الطفلة الحمقاء.. تعرضين نفسك لمثل هذا الذعر؟ كان يجب أن تنتظري حتى آتي واخبرك بأن بول أخذ الى

غرفة العمليات، فقد وصل الجراح منذ نصف ساعة".

وكان الماء باردا فوق شفتيها، وجاء الخبر دافىء الأثر، وسألت:

"كم ستستغرق الجراحة"؟

"بضعة ساعات على ما أعتقد، اسمعي ياصغيرتي، لماذا لا تعودين الى البيت؟ ان أجواء المستشفى ستضغط أكثر وأكثر على أعصابك خلال الساعات المقبلة".

"أفضل أن ابقى، أعد بأن اكون عاقلة، سأشرب أنا وكارا القهوة، وبعد ذلك ستجلس في الحديقة".

"بصفتي طبيبك كان يجب أن آمرك بالعودة الى البيت، ولكنك بدون شك ستكونين أشد اضطرابا وأنت تنتظرين الأخبار، أجلسي في الحديقة، فالشمس أشرقت. والجو دافىء ولن يصيبك أنت والأخت الصغيرة أذى هناك." وجلست، ونظرت اليه بعينين واسعتين في وجهها الشاحب، وقالت:

"هل الجراح ماهر يا ميتروس"؟

"واحد من أفضل الجراحين، صلب مثل بول نفسه، وأمثال هؤلاء الرجال يصلون دائما الى أهدافهم، الا يفعلون ذلك"؟

وعضت على شفتها وهي تقول:

"لست متأكدة هذه المرة، ان بول بالتأكيد سيكرهني عندما يُنتهي الأمر، ولكن كيف كان لي أن أتركه يموت"؟

وأسرعت دومني عائدة الى الغرفة التي تركت فيها كارا نائمة، حتى تخبرها بأن بول أصبح بين يدي الجراح، وأن الأمل معقود على أن يمنح بول نظره الى جانب حياته. ومر الوقت بطيئا، ثم فجأة لمحت دومني احدى الممرضات مقبلة في اتجاه حيث جلست فيه مع كارا، ونهضتا، لمقابلتها، فأخبرتهما أن السيد ستيفانوس خرج من غرفة العمليات، وأنهما تستطيعان المجيء لالقاء نظرة عليه.

وأضافت الممرضة، التي كانت تتكلم اليونانية مع

كارا التي قامت بمهمة الترجمة أن الجراح يرجو بعد ذلك أن يتكلم مع مدام ستيفانوس.

وخفق قلب دومني ذعرا، والتقت بعيني كارا في توسل. وسألت كارا الممرضة بيونانية سريعة، ثم قالت:

"الممرضة تقول أنها مجرد شكليات".

ولكن أصابعهما ارتعشت وهما في طريقهما الى الداخل.

١٣ - الحب ينتصر على الكبرياء

بدا بول، شأن المرضى دائما عقب عملية طويلة ومرهقة، كأنه لن يصحوا أبدا. وكان رأسه ملفوفاً بالضمادات البيضاء، وانقطع حبل الصمت في غرفة النقاهة عندما تركت كارا أخيرا العنان لدموعها، وقالت وهي تشهق بعبراتها:

"ان... ذلك لأنني سعيدة للغاية... سعيدة... سعيدة جدا لأن بول سيكون على ما يرام".

وكان الجراح رجلا طويل القامة، أسود الحاجبين، ثقيل الكتفين وقال لدومني بطريقته الصريحة الصارمة أن عليها أن تفهم أنه لا يمكن التأكد في هذه المرحلة ما اذا كان فقد بصر زوجها سيكون كلياً او جزئيا فخلال انتزاع الشظية، تعرضت الأعضاء البصرية للتلف باختصار، يجب على السيدة ستيفانوس أن تعد نفسها للأسوأ، وأن تتمنى الأفضل، وفي أحسن الأحوال، فان بول سيحظى بنور عينه اليسرى!

وأصرت العمة صوفيولا على أن تقضي دومني الأسبوع التالي في بيتها، لأنه أقرب الى المستشفى، كذلك ليس من مصلحة دومني أن تبقى وحيدة مع القلق في ذلك البيت الكبير الخالي. ووافقت دومني على الاقتراح، لكن كان عليها أن تذهب الى البيت لتحضر بعض الملابس، ولأنها أيضا

أرادت أن تطمئن يانيس وليتا الى أن بول سيكون بخير.

وجدت البيت ساكناً للغاية، ولكن في الخارج كان الرجال في حركة دائبة على الشاطىء. بعضهم كان يرفع الأحجار من سرداب الكهف الذي لم يعد صالحا للاستعمال، والبعض كان مشغولا بتركيب سلك كهربائي جديد لتشغيل مصعد يصل بين الشاطىء وأعلى القمة. كانت تلك فكرة بول، وكانت قد وضعت موضع التنفيذ منذ عدة أيام، وفكرت دومني أنها ستكون الآن مفيدة للغاية، لأن بول لن يتكمن من استعمال الممرات المتآكلة لمدة أسابيع، ربما حتى نهاية عمره، اذا لم تتحقق المعجزة التي كانت تدعو لها.

وكتبت رسالة لعمها قبل أن تنتقل الى بيت العمة صوفيولا وجلست أمام مكتب بول في غرفته الخاصة، واستعملت القلم المزخرف الذي كان ملكا لجده. كان لديها الكثير لتخبر به العم مارتن، ولكنها لم تكن تريد أن تقلقه كثيرا، لذلك لم تذكر له شيئا عن الطفل الذي فقدته، واستغرقت الرسالة صفحات عدة، وأراحها أنها أخرجت على الورق بعض ما كانت تعانيه من مشاعر القلق بشأن حالة بول.

وبدت لها فردان بعيدة... كبيت في حلم... حيث تجولت ولعبت ولم تكبر أبدا - مثل أليس في بلد العجائب التي أعجبت بقصتها وهي صغيرة.

وجلست في هدؤ على مكتب بول، ثم أمسكت بيدها ثقالة الورق النحاسية المصنوعة على شكل ذلك الحيوان الخرافي ذي القرنين. الهدية التي أعطتها لبول ذلك اليوم من شهر العسل في مدينة لوو يوم... غريب... وتذكرت كيف تمزقت اربا سعادة ليلة حبها السابقة قبل أن تتوارى الشمس وراء الافق.

وأخذت باصبعها تتابع خطوط الثقالة الخارجية، رمز أكثر الأشياء مراوغة، كان ذلك ما قاله بول، رمز السعادة، نسيج الاحلام... ونهضت تخرج من الغرفة وقد حملت معها

الثقالة مثل غنيمة.

وكانت ليتا قد حزمت حقيبة لدومني، وحملتها الى الباب. وكان الباب مفتوحا، وقد وقفت على السلالم مجموعة من الناس خلف عيون قلقة، ومتلهفة لسماع دومني تؤكد بنفسها أن زوجها سيشفى من مرضه وسيعود قويا من جديد. وكانوا جميعا يحملون هدايا من الفاكهة والازهار لتأخذها دومني معها. وحينما امتلأت ذراعا دومني بالأزهار، لم تستطع أن تتكلم، لأن طوق التأثر أحكم اغلاقه حول حنجرتها، وتجمعت الدموع في عينيها، وتساقطت فوق باقات الورد الجميلة ذات الرائحة الزكية، حينما دفنت فيها وجهها، ثم ركضت نحو السيارة.

وكانت الأيام القليلة التالية أخف وطأة على دومني لأن كارا رافقتها، ونيكوس عندما يعود الى البيت من العمل. لقد بدا جادا وناضجا منذ وجد نفسه مسؤولا تماماً عن المكتب. وتنهدت العمة صوفيولا قائلة وهي تطرز.

"أصبح ابني رجلا... يخيل الي أنني منذ يوم أو أكثر، كنت ما أزال أحمله طفلا بين ذراعي... آه... ولكن سامحيني يادومني... ما كان يجب أن أحدثك عن الأطفال الآن، وان كنت لا أشك في أنك سترزقين بآخرين مع تحسن حالة بول بعد العملية، انه لن يلبث طويلا ياصغيرتي حتى يعود الى بيته".

وظلت دومني تتشاغل بالمجلة التي كانت تتصفحها، ذلك أن أحاديثها مع بول بجانب سريره، لم تكن تتضمن أية أشارة للمستقبل، وكانت كارا تذهب دائما معها خلال زياراتها له، وكلما كانت تلمح برغبتها في تركهما على انفراد لحديث خاص، كانت دومني تصاب بالهلع، وكانت دائما تفرح عندما ترى ابتسامة بول وهو يأمر أخته أن تبقى حيث هي. وكانت كارا، وهي تبدو أشبه بجنية في الثوب الأخضر،

أفضل ثيابها، تعود الى الانكماش ثانية بجانبه على السرير، وهي تنقل بينه وبين دومني نظرات حائرة.

وقد لاحظت دومني هذه النظرات، وان تظاهرت بغير ذلك. كانت بمرور الأيام تحاول أن تبدو عادية التصرفات قدر الامكان، وكانت الأربطة حول رأس بول تقل يوما عن يوم، وعن قريب كانت الضمادات سترفع عن عينيه، وعن قريب كانت ستعرف اذا ما كان سيرى قليلا، أم لن يرى على الاطلاق.

وكانت دومني قد ارتدت ثيابها استعدادا للذهاب الى المستشفى عصر يوم الجمعة، عندما اكتشفت عدم وجود كارا في أي مكان في البيت، ولم تستطع العمة صوفيولا أن تعرف مكانها، لكنها أضافت أن دومني ليست مضطرة الى انتظارها، لأنها تضيع دقائق ثمينة من ساعة الزيارة المحددة.

وقالت دومني وقد تقلصت أصابعها فوق الحقيبة التي تحمل فيها الفاكهة لبول:

"ألا تأتين معي يا عمتي صوفيولا"؟

وربتت العمة على ذراعها وقالت:

"يا طفلتي العزيزة، هذه فرصة ذهبية لك لتنفردي ببول. ما كان يجب أن تأخذي كارا معك كل مرة، أنا على ثقة بأنها تحتكر كل الحديث، يالها من فتاة ثرثارة! انها أحيانا توجع رأسي العجوز".

"ولكن بول يستمتع بالصحبة، من فضلك تعالي".

وحينئذ نظرت اليها العمة صوفيولا بدهاء وقالت لها بصراحة:

"هل أنت خائفة من الانفراد ببول؟ هل تخشين أن يلومك، اذا اكتشف بعد رفع الضمادات أنه أعمى"؟

وأجابت دومني برنة ألم:

"عمتي صوفيولا... انك قاسية القلب"...

قالت العجوز بجفاء:

"ان هذا يجري في دماء الأسرة"..

وظلت واقفة أمام الباب حتى ركبت دومني السيارة القديمة ولوحت لها والسائق ينطلق بها. وعرف بول في الحال أنها جاءت بمفردها، وكانت تتكلم بعصبية طول الوقت وهي تخرج ثمار العنب والخوخ من الحقيبة، وترتبها في طبق على المنضدة الملاصقة لسريره. وكانت أوراق الورد التي أحضرتها في اليوم السابق تناثرت على الأرض، فانحنت تلتقطها، وتجمعها في يدها مختلسة نظرة نحوه، لترى أنه كان غير مرتاح في جلسته والوسائد خلف ظهره، وبدا عابسا تحت أنفه الشامخ المتعجرف.

وقالت دومني:

"أعرف أنك تحب أن ترى كارا، ولكن"...

وهنا قطعت كلامها، ولكن بعد فوات أوان التنبه الى ألفاظها وتلعثمت ثم أستطردت تقول:

"هل... هل تحب أن تأكل خوخا؟ سأقشر لك واحدة".

وبهدوء قال:

"دومني، يوجد شيء أريده".

ووقفت في لهفة بجانب سريره متسائلة:

"ما هو يابول؟ أخبرني من فضلك".

وأدار رأسه وبدا كما لو كان ينظر اليها مباشرة من خلال الضمادات وقال:

"أريد أن تشتري تذكرة طائرة، وأن تعودي الى انكلترا".

وحدقت فيه غير مصدقة، وهتفت:

"ماذا"؟

ووضع يديه وراء رأسه وقال:

"لقد سمعتني".

ولم ترفع بصرها عنه، كانت الشمس تلقي أشعتها من خلال النافذة على سريره، في خطوط أشبه بجلد النمر، وشعاع ذهبي منها استقر على عنقه الأسمر، حيث كانت سترة البيجامة مفتوحة... ولمحت دومني حركة حنجرته وهو يبتلع وانفجرت قائلة:

"اذا كنت تعتقد أنني سأشتري هذه التذكرة، فأنت مخطىء للغاية، سأبقى هنا".

قال بجفاء:

"سيخرجونك من هنا بعد خمسين دقيقة".

ومالت فوقه، واستندت بيدها على السرير، وقالت:

"كان من الضروري أن أوقع الأوراق".

"تقصدين... أنهم أرغموك"؟

"كلا... فعلتها بنفسي من أجلك ياحبيبي".

"ماذا دعوتني"؟

ومن جديد أحست كأنه يتأملها من خلال الضمادات، وبدا فمه مترددا، مسترخيا بعد توتر اللحظة التي مرت.

واندفعت دومني كالعاصفة تقول:

"دعوتك من قبل الطاغية اليوناني! والآن تقول لي أن أذهب الى انكلترا؟ هل تعتقد أنني أذهب وأنت في هذه الحالة؟ من حقي معرفة ما اذا كانت عينك اليسري سليمة كما هو حقك"!

"منذ متى"؟

"منذ أن دخلت حياتي، وجعلتني زوجتك".

وبحث بيده... فوضعت يدها فيها، وأغلق أصابعه باحكام على أصابعها، وسأل:

"هل أنت آسفة علي"؟

"آسفة عليك؟ انني آسفة على نفسي، لأن عليّ أن أحتملك لمدة الخمسين عاماً المقبلة، أيها الطاغية، يالها من حياة"!!

"أنا لا أسألك أن تبقي".

"أنت لم تسألني أن أحبك، أخبرتني أن احتفظ بالحب، سوف احتفظ به لنفسي اذا كان لا يزال ذلك ما تريد يابول، ولكنك لفترة سوف تحتاج اليّ... وأنا في خدمتك"!

ثم أطلقت شهقة عالية عندما عادت أصابعه تسحق أصابعها من جديد، ورفع يدها الى فمه وقال:

"يا لأنوثتك وأنت تهددين وتبكين في الوقت نفسه".

"أنا... أنا لا"...

"لست أنثى"؟

"لا... لا أبكي"...

وسقطت فوق السرير، ودفنت وجهها في كتفه، وتركت العنان أخيرا لدموعها المختزنة، وأسند رأسه على صدرها، وداعبت شعره بأصابعها وهي تقول:

"الدكتور سويزا متفائل جدا... كلنا متفائلون... وانت"؟

"هل أستحق أن أكون؟ لقد انتزعتك من كل ما كان عزيزا عليك، وخدعتك تلك الليلة الأولى، وحطمت قلبك بفقد الطفل".

وعانقته وقالت بنعومة:

"لا تتكلم بعبارات كهذه يابول فاني أحبك، جعلتني أحبك منذ فترة طويلة، ولكن الكبرياء كان دائما رذيلتي، ولم أستطع أن أعترف بهذا الحب لنفسي فكيف كنت أستطيع أن أعترف به لك؟ أوه يابول عندما اخبروني أنك تموت، أردت أن أموت معك، وحينما قال الدكتور سويزا أن هناك فرصة ولو فرصة عمياء... كان لابد لي أن أدعك تنالها ياحبيبي".

وتحسست رقبته، وكتفيه، وشعرت بعظامها تتفتت عندما احتواها بين ذراعيه بطريقته القديمة، وانطلق يهمس بصوت متهدج:

"ضقت ذرعا بهذا المستشفى، يجب أن ينزعوا هذه الاربطة سريعا، أريد يادومني أن أعود معك الى البيت".

وضمها أكثر وقال هامسا:

"الشمس والقمر والنجوم مظلمة الآن يادومني، ماذا لو ظلت هكذا بالنسبة الي"؟

"ان شخصين يستطيعان الرؤية عبر الجبال والمحيطات يابول، اذا كانا معا، وكل منهما بحاجة الى الآخر".

"تبدو الآن ياحبيبي أنعم ملمساً، كنت تبدو قبيحاً بعد العملية".

"هل أرهبتك"؟

"وهل مضى أبدا وقت لم ترهبني فيه"!

★ ★ ★

وعادا الى البيت بعد أيام قليلة، حيث وقف بول في الشرفة، وقد لف ذراعا حول خصر دومني، ورأى من جديد زرقة البحر الأيوني العميقة منعكسة في عينيها اللتين رفعتهما نحو وجهه في حب. ولم يكن ملحوظا أن بول فقد بصر عينه اليمنى كلية، ولكن الرؤية في العين اليسرى كانت تشتد يوماً بعد يوم.

وشردت أفكار دومني، العينان اللتان تشبهان عيني النمر... وازدادت التصاقا ببول... أحست أنها تحبه كثيرا... العزيز المسيطر، الذي واجه رصاص البنادق والقنابل في السادسة عشرة، والذي سيرث منه أبناؤه الشجاعة والجرأة.

وقال بول:

"سنعيش حياة طيبة معا يادومني، الآن سيكون حالنا كذلك اليوم الذي كنا فيه معا في كورنويل، هل تذكرين الثقالة النحاسية"؟

وأومأت في سعادة وقالت:

"كانت في حقيبة يدي كل يوم ذهبت فيه لزيارتك

في المستشفى، هذا الحيوان الخرافي جلب لنا الحظ، والسعادة يابول".

أضاف وهو يضمها أكثر، وبلا نهاية:

"وأنت جلبت لي الحب".

ولم يتركها حتى أقبل يانيس مبتسما ليخبرهما أن الشاي في انتظارهما".